سان أنطونيو

مكيدة الأب فرنسوا

Bibliotheca Alexandrina
0019563

مَكيدَة الأُب فرنسوَا

سان أنطونيو

مكيدة الأب فرنسوا

السلسلة البوليسية

صوت الناس

LE COUP DU PÉRE FRANÇOIS

by

SAN ANTONIO

ترجمة

بسام حجار

ARABIC EDITION 1993
© SAWT AL-NAS
P.O.Box:7038 - Limassol
CYPRUS
P.O.Box:113/5796 -Beirut
LEBANON

ISBN 1-85513-174-9

جميع الحقوق العربية محفوظة

الطبعة الأولى، آب/أغسطس ١٩٩٣
الغلاف: تصميم رملة شماعة
رسوم: شيفورن كوريفان

الفصل الأول

كان الصوت باهتاً ورخواً تمازجه نبرةُ التشكّي. ظننتُ في البداية أنه صوت بينو.

ـ آلو! أود أن أكلّم الكوميسير سان أنطونيو.

ـ أنا الكوميسير.

ـ قل لي يا حضرة الكوميسير، أما كنت في صباك تلميذاً في ثانوية سان جرمان أون لاي؟

فدفعني هذا التلميح الى ماضيّ الباهر في المدرسة للتنبّه والاصغاء.

ـ بالفعل، لماذا تسأل؟

ـ أنا موربيون، الا تذكرني؟

مكثتُ ذاهلاً وقد استدارت عيناي مثل فطيرتين، وعبَقَتْ فيهما نسمة حنين الى قاعة الصفّ اهتزت لها أطراف منخري.

ـ موربيون! موربيون العزيز الرقيق، الطيّب! مُستحيل! كيف حالُك يا أستاذي العزيز؟

ـ في حالٍ افضل، أجاب، ما جعلني أدرك، بلا جهد كبير، أنّه كان متوعّكاً.

ـ وأيُّ طالع سَعْدٍ جعلني أستحقّ منك هذا الاتصال؟

فتنحنح قليلاً. كانت عادة لديه. فبعد كل خمس أو ست كلمات يتلفّظ بها، كان يُصدر مثلَ هذا النقيق المضحك من جوزة عنقه.

ـ قل لي يا صديقي الصغير...

صديقي الصغير! كما في السنوات الغابرة، في قاعة الصفّ. فسَرى نغمُ كآبةٍ رقيق في أوتار قلبي.

ـ قُل لي يا صديقي الصغير، أيجد شرطي بمثل شهرتك وانهماكك متسعاً لدقائق معدودة يكرّسها لرجلٍ عجوزٍ مثلي أبلى العفنُ نصفَه؟

قهقهتُ ضاحكاً.

ـ يا له من سؤال! متى الـمُلتقى؟

ـ متى نلتقي؟ قال مصحّحاً. لطالما امتلكتَ أسلوباً جميلاً في الكتابة أما كلامُك فيُرثى له يا أنطوان!

ثمّ ردّ على سؤالي:

ـ في أقرب وقت ممكن، قال موربيون راجياً.

ـ أتريدني أن أذهب اليك؟

ـ ما كنتُ لأجرؤ على مثل هذا الطلب لولا أني غادرت المستشفى لتوّي وأشعر أنّ ساقيَّ واهنتان.

ـ لا بأس، أصلُ خلال دقائق، أعطني عنوانك.

كان موربيون يقطنُ شارع «لا بومب». ومع ذلك، أقسمُ لك أنّه لا يشبه سكان الدائرة السادسة عشرة(*).

*

* *

ـ السادس الى اليسار! نَبَرتْ حاجبةُ المبنى، وهي امرأة ضخمة الجثة يبدو وجهها كأنها قد حلقت ذقنها حديثاً.

دخلت الى المصعد وما إن استسلمتُ لصعوده بي حتّى رحت أستجمع ذكرياتي استعداداً لمؤتمر صحافي.

لم أعلم قط من أين جاءته تلك التسمية المهنية. زملاء لنا، أكبر سنّاً، لقّبوه بهذا الاسم، وأراهنكم أنّه إذا كان لا يزال في التدريس فلا بدّ أن لقبه ما زال موربيون. إذ ليس صحيحاً أن المدوّنات هي التي تجعل دوام التاريخ ممكناً!

ما أن أغلقت بوّابة المصعد خلفي حتّى فتح باب عند صحن الدرج وبدا منه استاذي العجوز موربيون. والحقّ يُقال أنّ الأعوام الخمسة عشر التي انقضت منذ تركي المدرسة لم يكن وطؤها سهلاً عليه. فما إن طالعتني سحنته حتى أدركت كم يخطىء الأولاد في تخمين أعمار الكبار. ففي ذلك الوقت كنت أحسبُ موربيون عجوزاً. وأصنّفه من الأجساد المتداعية. والحقيقة أنّه لم يبلغ حدّ التداعي إلّا اليوم، ذلك الجديُ البائس.

صلعتـه النظيفة المحدّبة تتغضّنُ في مواضع كثيرة. أما أطرة

(*) حي ارستقراطي في باريس.

شعره الأشقر فقد استحالت رماداً أو بلونه. ثقلت أجفانه وبدّل نظاراته ذات الاطار المذهب بأخرى من قشرة العاج. له رأس بحجم قبضة اليد ويبدو أكثر شحوباً من دعوةٍ لعرس.

شيء واحد لم يتبدّل فيه: زيّه المضحك. إذ يَحسَبُ ناظره أنه لا يزال يرتدي بتطاله الداكن ذا الثنيات العريضة، وياقة السلّولويد البيضاء إيّاها فوق قميصه المرتّق الأزرق وربطة العنقِ الرفيعة السوداء وردفيه الطويلين اللذين يصلان الى أظافر أصابعه.

ـ إذاً، ها أنتَ يا صديقي الصغير! قال بصوته المخفض المتأنّي، لقد تبدّلت كثيراً منذ أيام المدرسة!

صافحت يده الصغيرة الدافئة ثم دخلت الى منزله.

كان الداخل أشبه بما يفوق الوصف. إذ ينبغي أن يكون المرءُ مربيّاً عجوزاً بالفعل لكي يلوذ بمثل هذا الوكر. يكاد الأثاث أن يطقطق منهاراً تحت ثقل الكتب. كتب مكدّسة على الأرض، وأكداس أخرى في الرواق. أشبه بنقرسٍ فتّاك يلتهم كلّ شيء. أطمارٌ مهملة هنا وهناك، ثياب داخلية متسخة، أوعية ملطخة ودبقة تتكدّس في مواضعَ قد لا تخطر في بالِ أحد.

ولكن ما هو أسوأ من الفوضى، والذي يصدم الزائر بعنف، هو الرائحة. وسرعان ما فطنتُ لمصدرها إذ رأيتُ نصفَ دزينةٍ من القطط تقعد هانئةً فوق فضلاتها الموقّرة.

ـ البيت لم يُنظف منذ بعض الوقت، أنذرني موربيون، لذلك أرجو المعذرة. لقد عدتُ هذا الصباح من المستشفى.

ـ ما الذي أصابك؟

ـ انسداد حاد في المسلك البولي.

ـ وهل كان الأمر موجعاً؟

ـ في البـداية لا تشعر بشيء، ولكن الأعراض سرعان ما تظهر تدريجياً. تبدأ بخدر بطيء وكامن في المسلك ورأس القضيب، ثم سرعان ما يؤدي ذلك الى انخماص القضيب كليّاً. وعندما أجرى البروفسور بانديمو الجراحة كنتُ على وشك أن أُصاب بما يسمى القذف المقلوب.

وفيما يواصل الشرح حول أعراض مرضه، كان موربيون يُخلي احدى الكنبات من الكتب والقطط والبراز.

ـ تفضّل اجلس يا صديقي الصغير. هل أقدّم لك شراباً ما؟

ـ بكلّ سرور، قلت مرحّباً.

وانفتلتُ مثل مهرجان مائي يُقامُ على القناة الكبرى.

ـ لو علمتُ أنّك ذات يوم ستقدم لي كأساً، اقولُ.

ـ وأنا ايضاً، يجيب موربيون مبتسماً، لو توقعتُ أن يصبح أكثر تلاميذي طيشاً أحد المجلّين في سلك الشرطة. كيف اهتديت الى هذه المهنة؟

ـ خلال الاستراحات المدرسيّة كنا نلعب لعبة الدركي واللصّ، وكنتُ ألعبُ دائماً دور اللصّ، لذلك أردت أن أصبح شرطياً رغبةً في التغيير...

يبتسم.

ـ أتحسب أنّها مهنة، أقصد ما تفعله؟ قال مُتعجّباً.

ـ ليست تماماً، ولكنّها تسلية لا بأس بها. تسلية نجازف فيها بحياتنا.

اهتدى موربيون الى كأسين متسخين وقال مظهراً لامبالاته، الحياة، يا صديقي الصغير، ليست بالصفقة الكبيرة. فهي مُستحيلة على هذا الكوكب إلّا بين عشرين درجة تحت الصفر وأربعين درجة فوق الصفر. والحالُ أن الشمس التي تضمنها لنا تبثُّ خمسة ملايين درجة! عندئذٍ تدرك مقدار هشاشتنا. يكفي أن تقوم هذه اللعينة بانزلاقة طفيفة نحو هذه الجهة أو تلك فيستحيل كوكبنا العتيق الى جليدٍ أو رماد.

يسحب قنّينة من سلّةٍ تحتوي عدداً من الأشياء الغريبة ويملأ كأسينا.

كنت أودّ أن أمسحَ حافة كأسي بمنديلي قبل أن تمسّه شفتاي، إلّا أن موربيون عاجلني بالنخب.

ـ نخبك، يا صديقي الصغير.

تبادلنا الأنخاب وتمالكت نفسي. وأنا أقطب حاجبي باشمئزاز من مذاق الكأس.

ـ ليس رديئاً، أليس كذلك؟ يسأل موربيون.

ـ بل فاخر، قلت مزيداً، وما نوعه؟

يُدير القارورة نحوي. وعندها فقط أدركت أنّه سائلُ تنظيف. فلفتُّ نظر أستاذي العجوز الى حقيقة الأمر فأجاب بهز الكتفين.

ـ لا يمكن لهذا الشراب أن يضرّ بنا. وكرع كأسه جرعةً واحدة. فأخذت أتساءل حول غرض موربيون من استدعائي. فإلى الآن لم

يكلّف نفسه عناء الافصاح عن غرضه. وعندما لاحظت أنه يتجاهل الموضوع، بادرت الى سؤاله فارتسمت على وجهه ابتسامة تواضع.

ـ إني أدبيّ الميول، ومع ذلك لا أحبّ الغموض.

ويلمُّ زرّاً من أزرار قميصه وقع للتوّ من قميصه معبّراً عن نزعته الانفصالية عبر تدحرجه الرشيق فوق الأرضيّة وتابع قائلاً:

ـ عندما عقدت العزم على دخولِ المستشفى، يقول مشرّحُ باسكال متمتماً، أوكلتُ صديقةً عجوزاً برعاية القطط، ثمّ أوصدتُ باب شقتي ودسستُ المفتاح في جيبي...

ويرمقني كأنّه لا يريد المتابعة..

ـ إذاً؟ ورحت احثّه على المتابعة مدفوعاً بفضولي.

وفجأة يمتلىء نظره الكئيب ببريق سذاجة لا توصف.

ـ إذاً، يا صديقي الصغير، لقد أمضيتُ شهرين كاملين طريح الفراش في المستشفى ولم أعد الى وكري هذا إلاّ هذا الصباح. وقبل ذلك ذهبت الى صديقتي لاستعادة رفاق عمري، يقولُ مشيراً الى الكائنات ذوات المخالب! ونصل جميعاً الى البيت مُبتهجين بلقائنا بعد انقطاع، فلا أكاد أدخل حتّى تملكني الذهول...

ـ ماذا؟ صرخت سائلاً.

يرفع يده كما كان يرفعها في الماضي لفرض السكوت.

ـ شيءٌ ما غير محدّد، أقلقني.

ـ ماذا؟ عاودت سؤالي وأملي أن يكون بنبرة أقرب الى صوتِ الضفدع منها الى صوت الغراب.

ـ تكتكة، يُجيبني سريعاً بالمثل.

ـ قنبلة؟ أسأل راجياً.

وعند طرف ردفيه تعزفُ أصابعه طقطقة رتيبة وعصبيّة فوق المنضدة.

ـ لا: الساعة!

ويُشير بيده الى ساعةٍ صغيرة من طراز نوشاتل فوق حافة الموقدة.

ـ وإذاً؟ أقولُ فاغراً فمي.

تمتلىء عيناه بنظرات الاشفاق.

ـ لك سمعة مرموقة في سلك الشرطة ولا تستثيرك مثل هذه الأعجوبة؟ يقول موربيون هازئاً.

ـ ولكن أي أعجوبة؟

ـ هذه الساعة الدقّاقة يجب أن تعبّأ كلّ ثمانية أيام. وباب شُقّتي لم يُفتح طيلة شهرين. ولا يُعقل أن تدور الساعة كلّ هذه المدة، فكيف حدث ذلك؟...

ـ أتعتقد أن أحداً ما قد تسلّل الى شقتك أثناء غيابك؟

ـ أليس هذا المرجّح. ألديك تفسير آخر؟

ـ ربما، أُجيبُ. لنفترض أن ساعتك قد توقفت بعد رحيلك بقليل، ثمّ عاودت دورانها عند عودتك...

يهزّ كتفيه الهزيلتين.

ـ يا صديقي الصغير، ما تقوله هو محض تشكيك بالقدرات

السويسرية، وما أقوله محض تشكيك بالشرطة. إذاً أنت تعتقد أن ساعتي تتوقف عن الدوران فور مغادرتي البيت ثمّ تهرع لاستئناف دورانها فور عودتي؟ أمرٌ غريب فعلاً!

إنه يضجرني، هذا الموربيون، بسخريته اللاذعة كمسطرة الحساب.

ـ اسمع يا أستاذي، أقولُ في هجومٍ مضاد، يحدث أن تتوقف الساعات عن الدوران، أليس كذلك؟ لنقل أن ساعتك أصيبت بتوعّك. فتتوقف عن الدوران. ثمّ تعود من المستشفى، والقطط المفرطة في تجوّلها من حولك، على ما أرى بعيني هاتين، ترتطم بها فور عودتك فتكون الصدمة الطفيفة كفيلةً باطلاق دورانها من جديد. حُجّة مقنعة!

ـ لا!

ـ لا؟

ـ لا!

ـ بوركوا(*)؟ على حد قول الانكليز عندما يأنفون استخدام كلمة بيكوز(**)؟

بدأت عينا موربيون تتقلّبان في محجريه.

ـ لأن الساعة كانت تشير الى الساعة المضبوطة، يا صديقي الصغير. لا بد إذاً أن تعترف أن المصادفة تفرطُ في أعاجيبها حين

(*) Pourquoi = لماذا.

(**) because = لأنّ او بسبب.

تعيد الساعة المعطلة الى دورانها في التوقيت نفسه.

ـ بالطبع، يا حضرة الأستاذ. إذاً لننظر الى المسألة من وجهة مختلفة، لقد دخل أحدهم الى شقّتك أثناء غيابك. ولماذا لا تكون الحاجبة؟

ـ لا تملك مفتاحاً للشقة. ومع ذلك سألتها، الأمر الذي أغضب امرأةً بوقارها. لا، يا صديقي العزيز، إن حارستي الشرسة لم تطأ هذا المكان.

ـ هل لاحظت أثر كسرٍ وخلع؟

ـ لا.

ـ هل فقدت شيئاً من مقتنياتك؟

فيهزّ كتفيه الهزيلتين.

ـ وما عساهم يسرقون؟ لا أملك إلّا الكتب.

يسكب لي جرعة أخرى من السائل المنظِّف، وبحركةٍ عفويّةً أشربها.

ـ لنفكّر قليلاً يا حضرة الأستاذ، أقول: لماذا، بحقّ الشيطان، قد يتسلّل أحدٌ ما خلسةً الى شقّتك؟ أيكون دافعه الوحيد هو أن يعبّىء ساعتك؟

ـ بالضبط، هنا يكمن اللغز! يقولُ موربيون وقد بُحّ صوته فجأةً. إن علامة الاستفهام هذه هي التي دعتني للاتصال بك، يا صديقي الصغير. لماذا جاء أحدهم الى منزلي أثناء مدّة غيابي؟ ولماذا عمد الى تعبئة ساعتي؟

الا تجدون أن الموقفَ طريفٌ يا أصحاب؟ يتّصل أحدهم

بالشرطة ويقول: «أريد أن أعلم مَن عبّأ ساعتي أثناء غيابي في المستشفى!».

ـ من يفعل ذلك يستحق أن يوضع في قفصٍ للطيور وعَرْضه للعموم عند رصيف «لا ميجيسوري»، أليس كذلك؟

ـ ألم تعثر على أي أثرٍ مشبوه؟ سألته مراعاةً للشكليّات.

ينبغي الاعتراف أن الآثار المشبوهة في مستودع الحاجيّات هذا قد لا تسترعي الانتباه، كما لا يسترعي انتباه المارة وجود الحرس أمام قصر الأليزيه.

ـ لا، لم أعثر على شيء، يقول موربيون مبتسماً ولا بدّ أنّه فطن لما عقدته بناتُ أفكاري من التشبيه، لا، كانت هذه الفوضى كما تركتها، لم تمسّها يدٌ أو رِجْل.

ـ وهل عبّأت الساعة؟

ـ أجل، كيف أتثبّت من الأمر. لم يدُور مفتاح التعبئة سوى بضع دورات. وحسب تقديري أنّها عبّئت منذ يومين أو ثلاثة.

ـ أتسمح لي بتفقُّد شقّتك؟

ـ إفعل ما يحلو لك!

يتألف «قصره» موربيون من حجرتين ومطبخ وحمّام. وثمة كتب مكدّسة في المغطس وفوق طاولة المطبخ ورفوف المدخل وجرن المرحاض والمغسلة. تفحّصتُ الأرض والجدران والسقف. ولم أتبينّ شيئاً. إنه الإخفاقُ، يا إخوتي. والكلام في سّركم، لا بدّ أنّ الأب موربيون باتَ حافيَ الذهن. فلطالما كان استاذنا العزيز شاردَ الفكر، خلوَ الطاسة، فلقد رأيته، بأمّ عينيّ، مراراً وقد زرّر فتحة

بنطاله كلَّ زرّ في عروةِ الآخر. وعندما يخطر له أن يملأ قلمه بالحبر تكون المسخرة، لأن المحبرة تندلقُ فوق رزمةٍ من المسابقات. ورأيي أنّـه حين عاد منذ بعض الوقت الى منزله عبّأ ساعته ساهياً عمّا يفعل، وبعد ثوانٍ نسي تماماً وراح يفسّر الأمر بأنّه أعجوبة! يا لك من رجلٍ ظريف يا موربيون، دعكَ من كلّ هذا! رجلٌ بمثل سنّك، لا بدّ أن الحياة قد أصبحت بالنسبة لك ذات أبعادٍ أخرى.

بعد التثبّتِ من أن الأمور على خير ما يرام في جُحر هذا العجوز الخرف، بدأت أهمُّ بجرّ نفسي الى الخارج، ذاهباً كما جئتُ، بخفيَّ حنين.

ـ سأفكر ملياً في مشكلتك، يا حضرة الأستاذ. أقولُ واعداً.

فيرمقني بنظرة شكّ.

ـ يا صديقي الصغير، إني أعلمُ بالضبط ما يدورُ في خَلَدك.

رعشة خفيفة تسري من نعليّ الى نخاعي مروراً بأسفلِ ظهري.

ـ حقّاً! أقولُ بائساً.

فيطلق موربيون ثغاء أشبه بضحكة طفلٍ حزين.

ـ تقول في سّرك الآن إنني رجلٌ خرف، يضيفُ موربيون قائلاً، وتقول في سّرك أيضاً إنني عبّأتُ الساعة بيدي ثمّ سهوت عمّا فعلت، أليس كذلك؟

ـ لا، على الاطلاق، أقول مُعترضاً محاولاً أن أخفي ذهولي.

ـ اسمع يا أنطوان، قال موربيون بنبرة توبيخ، ما زلتَ لا تجيد

الكذب كما كنت في صغرك. الضفدع الذي وضع في محفظتي، كنت أنت الفاعل، أليس كذلك؟

ـ ولكن يا حضرة الأستاذ، أقولُ مُتلعثماً، مُستعيداً بذلك روحية التلميذ الأحمق.

ـ المسألة قديمة، وانتهت بتقادم الزمن، يقول موربيون متنهّداً، إذاً اعترف!

ـ حسناً، كنت أنا الفاعل.

ـ والسائل اللاصق على الكرسي؟

ـ ربّما كنتُ أنا الفاعل أيضاً، أقول معترفاً.

ـ وسائل الميتيلين الأزرق في ممحاة اللوح؟

ـ ما عدتُ أذكر، يا أستاذ.

ـ أما أنا فأذكر جيّداً: لقد أفسدت بذلتي.

وراح يضغط باصبعه الممدودة على صدري كأنها مخرز.

ـ والآن إعترف انّك تحسبني رجلاً خرفاً؟

ـ أبداً، على الإطلاق، يا حضرة الأستاذ. فقط أحسبُ أنّك كثير الشرود. الا تذكر ذلك اليوم حين شرحت لنا درساً للصف الثاني المتوسّط وقد نسيت كليّاً أننا في الصفّ الثانوي الأوّل؟

ـ طبعاً أذكر، يغمغم موربيون قائلاً.

ـ ويوم ارتديت ياقتك المستعارة ومعطفك دون أن ترتدي قميصك؟

ـ أحدث ذلك فعلاً؟

ـ يا أستاذ، عندما يسهو المرء عن ارتداء قميصه، يُصبحُ من الممكن أن ينسى أنّه عبّأ ساعته بيده. هيّا، لا تقلق. المهم انّ شيئاً من مقتنياتك لم يُفقد ومددت له يدي قائلاً:

ـ سأغادرك الآن. وحالما تعترضك أي مشكلة لا تتردّد في الاتصال بي. لقد سُررتُ بلقائك. وللمناسبة أما زلت تزاول التدريس؟

فيغمز بطرف عينه ويقول:

ـ لقد تقاعدت منذ أربع سنوات؛ إنني أعطي بعض الدروس في إحدى المدارس الداخلية الدينية؛ لكي لا أفقد لياقتي.

ـ ملحدٌ عتيق مثلك! أقول مُستهجناً.

فيرمقني بعينه المكّارة.

ـ اطمئن، معظم دروسي تدور حول فولتير وروسو وكارل ماركس.

تبادلنا تحيّة الوداع وهرولت مسرعاً الى مقرّ الحاجبة فرأيت هذه السيّدة المقدامة منهمكةً بتنظيف زجاج حجرتها بواسطة خِرقةٍ من جلدِ جَمَلٍ ميت. فبادرتها بجفاء.

ـ أخبريني يا سيّدتي العزيزة، اتعلمين أن الأستاذ موربيون يرتاب بأن شخصاً ما قد تسلّل الى شقّته خلال فترة غيابه؟

ـ أعلم، تجيبُ المرأةُ بنبرةٍ متعجرفة.

ـ أود الاستئناس برأيك أنتِ حول هذا الأمر.

ـ وهل أنت أحد أقربائه؟ تسأل.

ـ لا.

- إذاً هذا هو رأيي!

فتضع سبّابتها على صدغها وتبرمها مرتين كأنما تجرّب مفتاحاً في قفل خزانةِ جلطاتها الالتهابية.

- شكراً على المعلومة، أقول بنبرة تهذيب مفرط.

وأغادر المبنى مغتبطاً إذ تنشقت رئتاي مجدّداً هواء باريس بَعدَ أن اتخمتُ بالمناخ الموبوء في دارة موربيون.

الفصل الثاني

سيّارتي الجكوار طراز E مركونة على بعد بضعة أمتار من المبنى. وبينما كنت أصعد الى مقعدي خلف المقود، رفعت عيني المتوقّدتين ذكاءً نحو نوافذ دارة موربيون. لقد أثار فيّ هذا الرجل الطيب الذي انبثق فجأةً من الماضي ما لا يسعني وصفه من الأوتار الحسّاسة ـ أأعترف لكم ـ حتّى اغرورقت عيناي بالدموع.

كان وجهه المتقّعُ الصغيرُ يرسم ظلاً أشبه بلطخة خلف الزجاج المتسخ المغطّى بنسيج رقيق. أشرت اليه بتلويحة وداع لا يراها بسبب نظاراته. أدرت المحرّك فيصهل الاثنان والعشرون حصاناً تحت غطاء السيارة. ولكنني في لحظة الانطلاق انتابتني رعدة مباغتة، ففي اللحظة التي كنتُ فيها ألوّح بيدي مودّعاً موربيون كما ألمحتُ أعلاه، تلقّى وعيي المتيقظ أبداً لما يدور حولي، اشارة تفصيلٍ غريب. وفي غضون عشر الثانية انتقلت الاشارة الى ذهني. فأوقف المحرّك، وألقيت نظرةً مُتمعنة في اتجاه الطبقة السادسة فرأيت قطعة شريط أبيض وقد ربطت بحاجب النافذة تلوّح مطمئنةً على وتائر النسائم الربيعية. فأمعنت النظر قليلاً ثمّ تاه نظري الى الأعلى، الى ما فوق السطوح، الى الغيوم الحدباء التي تجعلُ الأفق بلون الجنازة.

وهنـاك أقرأ الحقيقة. موربيون لم يخرّف. فما الذي يجعلني مقتنعـاً بصـدقِ روايتـه، فجـأةً، بعد أن حسبت أقوال الأستاذ العجوز مجرّد تخريف عجائز؟

غادرت سيّـارتي كمعتوه وصعدت مجدّداً الى شقة موربيون. ولأجده هناك على العتبة كأنّه يتوقع عودتي.

ـ كنت أعلمُ أنّك ستعود؟ قال لي.

ـ حقّاً يا أستاذ؟

ـ لطالما عرفتك كما أنت، يا أنطوان. فردّ الفعل الأوّل عندك يكون خاطئاً على الدوام. ذلك أنّك تبادر الى الفعلِ ثمّ تفكّر. ولم تهبط ستّ طبقات إلّا وقد أدركت أن الأب موربيون قد يكون شارد الذهن إلّا أنه ليس خرفاً!

وبدلَ أن أجيبه، تقدّمت مباشرة نحو النافذة. افتحها وأنتزع الشريط. انه شريط عادي من النوعِ الذي يستخدمه باعة الحلوى لتزيين علبِ زبائنهم.

ـ هل أنت مَنْ ربط الشريط بحاجب النافذة، يا أستاذ؟

يهزّ كتفيه.

ـ أتمازحني؟

عنـدئـذ لففت شريط الحرير حول إصبعي ولاحظت أنّه ليس متسخاً جدّاً مما يؤكّد أنه وضع هناك منذ وقتٍ قريب.

يحتضنُ موربيون قطاً رمادياً كبيراً ويداعبه بحنوّ دون أن يحيد بنظراته عني.

ـ هلْ شاهدت هذا الشريط من الأسفل؟

ـ أجـل.

ـ أرأيت يا صديقي الصغير، أنا واثق من أن أحداً ما قد تسلّل الى شقتي. ليس فقط بسبب الساعة. بل بسبب الرائحة، فما إن دخلتُ الى الشقة حتّى طالعتني رائحة غريبة... غير مألوفة.

ـ ذلك أنّ القطط لم تزرع الغرفة ببرازها طيلة شهرين!

ـ لقد أدركت ذلك، يقول موربيون موافقاً، ولكنَّ ما أقلقني هو شيء آخر. فما لفتني ليس غياب رائحة مألوفة، بل طغيان رائحة غير مألوفة. غير مألوفة و... كريهة. رائحة حرّيفة...

تنشّقتُ الهـواء من حولي، ورغم أن جمهرة الضيوف من تلك القـطط قد لوّثت أجواء الشقة، فقد شعرت فعلاً انني أشتمُّ أثراً لرائحةٍ أخرى.. أثراً لرائحة...

ـ يا أستاذ، أغمغم قائلاً. أعتقد أنّك على حقّ... هناك رائحة بارود!

ـ بارود؟ يقول مذهولاً.

ـ على ما يبدو لي... إنها الرائحة التي أعرفها جيّداً.

تنشّقت من جديد. أهو تأثير مخيّلتي؟ لا أعتقد.

يضع موربيون نظاراته.

ـ يا للطامة الكبرى، لو أن أحداً ما أطلق النار في شقتي لبدت الآثار واضحة، أليس كذلك؟

ـ ليس إذا جمعت الرصاصات الفارغة، يا أستاذي.

ـ ولكن... الرصاصات؟

ـ ربّما أطلقت الرصاصات من شقّتك على شخصٍ ما في الخارج.

تقدمت الى النافذة وأطللتُ على الشارع فكان ساكناً مغرقاً في هدوئه المعتاد.

ـ ولكن الطلقات النارية تُحدث صوتاً مسموعاً! يقول موربيون من ورائي.

ـ ليست مسموعة جدّاً إذا زوّد المسدّس الذي أطلقها بكاتمٍ للصوت!

وتستكشفُ نظراتي المُحترفة الرصيف المقابل. وأرى بوابّة ضخمة وقد علتها سارية بلا بيرق، وقد ثُبِّت على قاعدة السارية قرص حديدي. من حيث أقف لا أستطيع تمييز الحروف المرسومة عليه.

ـ أهو مبنى سفارة يا سيّد موربيون؟

ـ لا، إنها القنصلية العامّة لدولة الابانيا(*).

ـ آه...

أجيل بصري متمعّناً في واجهة المبنى. وأعترف انها بدت لي مجرّدةً عن الشبهات.

(*) ليس المقصود هنا ألبانيا برغم تشابه اللفظ (م. ع).

انهـا واجهـة بناء باريسي من الحجر المنقوش، تتخلّلها نوافذ عريضة ذات مصاريع، وقد أغلق مصراعا إحداها.

ـ والقنصلية تقع في أيّ طبقة من طبقات المبنى؟

ـ الطبقة الثالثة، يجيب موربيون.

أي الطبقة التي أغلقت نافذتها.

هممت بالمغادرة ولكنّ شيئاً ما استرعى انتباهي، ولن أبوح به حرصاً على التشويق.

ـ ألا تملك منظاراً يا سيّد موربيون؟

ـ لدي منظار صغير يستخدم في المسرح.

ـ هلاّ أحضرته لي؟

فيحك شحمة أذنه كمن يرضخ لأمر ويباشر البحث عن هذه الأداة البصرية الثمينة. يجدها في مطبخه داخل وعاء خزفي كتب عليه «طحين».

إنـه منـظار صغير صنعت أطره من قشرة الصدف، متواضع الأداء لكنّه يقرّبُ المسافة بعض الشيء. فانهمك بمراقبة المصراعين المغلقين. ومن خلال الفرجات الأفقية بين الألواح، ألمُح بقعةً بيضاء في الداخل. فأبذلُ ما بوسعٍ مقلتي لتحديد هذه البقعة، ويحالفني النجاح. إنها مربعة وتحتلُّ القسم الوسطي من الاطار. لا مجال للخطأ: إنها قطعة كرتون وضعت في مكان لوح زجاج مكسور. ولن يُدهشني أن يكون لوح الزجاج هذا قد تحطم وتناثر بفعل طلقة واحدة أو بضع طلقات.

أعيد المنظار الى موربيون.

- هل توصّلت الى شيء ما يا صديقي الصغير؟

فيخبره صديقه الصغير بما توصّل اليه. فيهزّ العجوز رأسه مرتين متتاليتين ما يعني لديه أنه استغرق في تفكير عميق.

- إذاً انت تفترض أن شخصاً ما قد تسلّل الى شقتي لكي يُطلق الرصاص على القنصلية في المبنى المقابل؟

- بالضبط، يا أستاذ. فثمة من علم بغيابك عن الشقّة فدخل اليها وكَمَنَ فيها نظراً لموقعها الاستراتيجي.

- أوتعتقد أن الفاعل قد قتل أحداً ما؟

- ربّما. أعتقد انك وقعتَ على قضيّة غريبة.

يمكث موربيون ساكناً. انه فيلسوف عجوز لا يرى في الحياة إلّا عطلة «زائفة» في يوم ممطر. والبشر، كالتلاميذ، يحتشدون تحت سقيفة يرتعدون برداً ويراقبون انهمار المطر بانتظار العودة الى أقبيتهم، تحت الأرض.

- والجاني هو الذي ربط الشريط وعبّأ الساعة؟

- على الأرجح.

- أبإمكانك تفسير هذين العملين الغريبين بعض الشيء؟

- ليس بعد، يا أستاذ، ولكن قد أستطيع لاحقاً.

وأمدّ له يدي مجدّداً.

- والآن أغادرك. أرجومنك أن لا تطلع أحداً على هذه القضيّة.

- ماذا ستفعل؟

ـ سأفكّـر.

لم تفاجئه نزعتي الاقتضابيّة. فاحتضن أحد قططه بين ذراعيه ورافقني الى العتبة مداعباً فروة ذي المخالب.

الفصل الثالث

اصغى العجوز الى كلامي دون أن ينبس ببنتِ شفة. مستقيماً في جلسته، يداه مبسوطتان فوق الورق النشاف وعيناه بلونِ بحار الجنوب: يبدو مُستغرقاً في شروده.

ـ إنه أمرٌ مثيرٌ للاهتمام، يقولُ في آخرِ المطاف. انت ترى إذاً أنَّ احداً ما قد أطلق النار على نافذة القنصلية؟

ـ اجل، يا سيدي المدير.

ـ لم نبلّغ بأي شكوى... انت تعلم جيّداً أن علاقتنا مع الالبانيا ليست في افضلِ حال؟

احاول ان انتبّع تعرّجات افكاره.

ـ اتعتقد انها محاولة اغتيال سياسية؟

ـ أعتقد.

ـ يفضّل جماعة القنصلية أن يتكتموا على الأمر؟...

ـ والبرهان...

يسود بيننا صمتُ أطول بقليل من لفيفة شريط لاصق. ثمّ يبدأ الحيزبون بعزف اصابعٍ منفردٍ على الطاولة.

ـ عليك أن تتولى القضيّة يا سان أنطونيو. ولا تخذلني.

ـ بأي صفة يا سيدي المدير؟

وأقولُ هذا لأحثه على الردّ لأنني أعلم سلفاً بماذا سيجيب. وبالفعل لم يجعلني أنتظر الجوابَ طويلاً.

ـ بصفة غير رسمية طبعاً. ولكن، أطلعني على المستجدّات دائماً.

ـ سمعاً وطاعة، أيّها الرئيس!

ـ وأغادر مكتبه بعد تحية شبه عسكرية. فيصفق باب مكتبه المبطن بالجلد قفايَ كأنّه يحثني على الحركة.

أعودُ إلى داري مُستغرقاً في التفكير كمنحوتة رودان. وأجد بيرو وبينوش يلعبان البوكر ويحتسيان الخمرة. لقد وصلت في الوقت الذي يحقق فيه السمين بكاريه دام أرباحاً ويكاد يقفز فرحاً.

ـ لطالما كانت الشقيقات الصغيرات جالبات حظّي، يؤكّد الرجل البدين.

ودون أن أعير لعبتهم أي انتباه، أرفع سمّاعة هاتفي لأتصل بالمختبر. ويردّ مانيان.

ـ قل لي يا صديقي الصغير، أبادره القول، مُستعيراً عبارة موربيون، أليس في فريقكم مَنْ يستطيع تركيب لوح زجاج؟

يربكه سؤالي.

ـ يركّب ماذا؟

ـ لوح زجاج لنافذة مكسورة. إذ ينبغي قطع الزجاج وفق

مقياسات دقيقة ثمّ لصقه... الخ. باختصار، ينبغي أن تكون له خبرة ودراية في مثل هذه الأمور.

يطلقُ سانيان من فمه صوتاً يُطلقه آخرون عادةً من موضع آخر.

ـ لا، ليس في عداد فريقي أي زجّاج...

ـ يا لخيبة الأمل!

ـ ليس بإمكان المرء أن يُجيدَ صنع كلّ شيء، يُجيب الأصهب معترضاً.

أضع السماعة. وعندئذٍ يلتفت بينو المحترم نحوي.

ـ إذا كان الأمر يعينك بشيء، يقول، فاعلم أنني أجيد تركيب ألواح الزجاج، يا سان أنطونيو.

ـ حقاً؟

ـ لقد عملتُ في صباي في مؤسّسة للدهان وتعلّمت هناك كيفية استخدام القاطعة الماسيّة.

ـ عظيم، أيّها العجوز الطيّب. إذاً، الى العمل!

ـ مهلاً! يصرخُ الرجل البدين ثائراً. أكادُ أسجّلُ نصراً باهراً على هذا السيّد ولا أريده أن يمسّ الحبالَ قبل تثبيت الكتفين..

ـ انه نداء الواجب، يا بيرو!

وفي حركـة استيـاء يرمي البدين بأوراق اللعب ناثراً إيّاها في أرجاء الحجرة.

ـ كلّما تقدّم بي السنّ يزداد شعوري بالضيق من هذه المهنة!

يقول جازماً. فإذا كنّا لا نحظى بعشر دقائق من الراحة، فلا بدّ أنها نهاية العالم!

*

* *

بينـوش في زيّ زجّاج، مشهدٌ لا يفوّت. فعندما يشعر أولادكم بالضجر أيام الآحاد، ليس عليكم إلّا الاتصال بالرجل المسنّ لكي يؤدي نمرته المسليّة.

بينوش يرتدي سترة زرقاء ويعتمر كسكيت سائق شاحنة أميركي مع عقب سيكـارته الأصفر الذي لا يفارق شفتيه، بينوش يحمل بخفـة حمّـالة خشبيّـة رصفت عليها الألواح الزجاجيّة من كافة الأحجام. ينعطف عند زاوية الشارع ويتجه نحو القنصلية العامّة لدولة الابـانيا مُزوّداً بتعليماتي. ذلك أني أعوّل كثيراً على مظهره الأبله لتبديد أي شبهة حوله. إذ ينبغي أن يُقابل القنصل زاعماً أنّه استـدعي بواسطة الهاتف. قد يعود خائباً. وقد يحدث أيضاً أن يستقبله موظف قليـل الحيـطة والحـذر ويقوده الى الحجرة ذات الألواح الزجاجيّة المحطمة. وفي مثل هذه الحال يكون على المحترم أن يستبدل اللوح المكسور وأن يتفقد في الأثناء ـ خلسةً ـ أرجاء المكان.

خلف مقود سيّارتنا المركونة على مقربةٍ جلسنا، حضرته وأنا، في انتظار تتمة الأحداث.

كفّ الرجل البدين عن شكاويه وراح يراقب بعين الحنوّ خيال رفيقه النحيل.

ـ بينوش ليس بالرجل الرديء، يُتمتم قائلاً؛ ونقيصته الوحيدة أنّه لا يمتلك القدْر الكافي من الحيويّة.

يتوارى الشخص الموصوف بالعبارة السابقة داخل مبنى القنصلية.

ـ أوَتحسب أن شُجعانك في الداخل سيبتلعون الطعم بسهولة؟ يسأل الرجل البدين.

ـ لستُ أدري، أزفـرُ قائلاً. ففي هذه القضيّة أكاد لا أتلمّس طريقي. مجرّد افتراضات. كلُّ شيء غامض. ثمّ إنّ العملَ في أوساط السلك الدبلوماسي أمرٌ بالغ الدقّة.

تمرّ ثوانٍ. فيسحبُ بيرو من جيبه نصف اصبعِ نقانق ويروح يلوكها بأناةٍ وتلذذ.

ـ إنها فضلة طبق «الشوكروت» الذي لم أستطع، لوسامته، أن أجهز عليه ظهراً. يقولُ شارحاً الموقف.

ألكزه بضربةٍ من مرفقي، إذ فُتحت مصاريع النافذة في الطبقة التي تحتلها القنصلية.

ـ يبدو أنّه استطاع أن ينال منهم! يقول بيرو مغتبطاً.

وبالفعل، بعد ثوانٍ، يظهر بينو من خلال النافذة. ومن بعيد أراه يطرق بقـايـا المعجـون بمـطرقة دقيقة الرأس لكي ينزع الاطار الخشبي من مكانه. أراه يعمل جادّاً وقد اعتلى كرسيّاً كأنّه بضرباته الخفيفة المتسارعة يقلّدُ نقّار الخشب. ونقراته تتناهى الى مسامعنا برغم ضوضاء المارّة والعربات.

عندما أتمّ تجهيز الإطار، ترجّل بينوش من مكانه ريثما يقطع

لوح الزجاج. فيتوارى عن مجال بصرنا. كم يُضني الانتظار! آمل أن يكون عجوزنا العزيز قد استغلّ الفرصة جيّداً. قد يكون بليداً بعض الشيء، صاحبنا بينوشيه، لكنّه يمتلك عين صقر عندما يقتضي الأمر. ولا يغفل عن شيء اللّهمّ إلاّ بعض القرقرة المعوية.

ينقضي وقت ليس بالقصير. وها هو يعتلي كرسيّه من جديد حاملاً بين يديه لوح زجاج جديد. ينحني قليلاً لتثبيت اللوح في إطار النافذة، وفي اللحظة عينها يفقد الرجل الوقور توازنه. فيسقط اللوح من يديه ويتحطّم؛ أما هو فيخبط ذراعيه في الهواء متمالكاً لكنه سرعان ما يهوي من فوق حاجز النافذة. نطلقُ، بيرو وأنا، صرخة أسى وعجز ويأس. سقطة حرّة من علوّ ثلاث طبقات، فلا بدّ أن الأمر يؤدي الى الوفاة.

الوداع يا بينو! يدور عزيزنا المسكين حول نفسه في سقطةٍ مباشرة. وفي الشارع يتعالى صياح المارّة المحتشدين. أغمضُ عينيّ. أرفض أن أرى المنظر. اريد أن اغيب، أن أبتعد عن هذه الواقعة الاليمة، لا أريد أن أرى بينوش يموت، أو أن أسمع صوت تحطّم عظامه فوق الرصيف.

وعندما افتح عينيّ، ألمح كتلةً داكنة مكوّمة على الأرض، وقد أحاطت بها جمهرةٌ نهمة تعشق الانفعالات القوية. ينطلق بيرو كالمعتوه. وصدّقوني إن شئتم (وإلاّ فاذهبوا لاقتعاد واقية الصواعق عند الناصية) وهنت ساقاي وخارتا. يستحيل تحريكهما. لا احسّ بهما على الاطلاق. فأسند جبيني الى المقود. وكم أودّ أن أبكي. بينوش، بينوش صديقي الطيّب... يا لنهايته الفاجعة، وبسبب أوامري! أمكث على هذه الحال لبعض الوقت. ثمّ يعود بيرو.

ـ لقد مات، قُتل على الفور...

رعشة برودة، أشبه بدرجة الصفر، تسري في أوصالي.

ـ مستحيل، أقول مُتلعثماً واهناً.

ـ للأسف، غمغم الرجل البدين، أمّا بينوش فأعتقد أنّه أصيب بكسر في الكتف.

ـ كيف؟

ـ لقد سقط فوق أحد رجال الشرطة. وهذا ما خفّف من وطأة ارتطام بينوش بالأرض. وبعد الذي جرى لا يمكن القول أن التنسيقَ مفقود بين أجهزة السلك، أليس كذلك؟

ـ وتقول إن بينو قد نجا؟

ـ قلت لك الكتف... حتّى انه لم يفقد وعيه... فماذا نفعل الآن؟

ـ لا شيء في الوقت الحاضر، أقولُ جازماً. لندع الأمور تأخذ مجراها الطبيعي.

ـ يا لبرود أعصابك، يا أخي!

ـ سيتولى مخفر الشرطة المحلّي التحقيقات بهذا الشأن. وسنتصل بهم لاحقاً. يجب أن نعمل في الخفاء، أيّها السمين.

ـ وماذا عن بينو؟

ـ هاكَ سيّارة الاسعاف. سيتم نقله الى المستشفى. وسنوافيه الى هناك.

ـ كما تشاء، ولكن لن تتمكّن من إقناعي أن الحادث مجرّد قضاء وقدر.

ـ في الظاهر بلى. فقد كان بينو واقفاً على كرسيّ وليس بجواره أحد لحظة وقوعه من النافذة.

ـ صحيحٌ أنه أصبح مسنّاً، هذا المسكين، يقولُ المقدامُ موافقاً.

الفصل الرابع

ـ كسر في عظم الكتف اليُسرى، كسر في عقب القدم اليُمنى، كسر في الإبهام الأيمن، التواء المعصم الأيسر، وتشقق في عظمة الحوض، يقول طبيب الطوارىء.

ـ يا لهذا البينو المسكين، كأنّه قطعة بسكويت جافّة، يقول بيرو باشفاق.

ـ وهل سيستغرق اصلاح هذا السيّد مدة طويلة؟ سألت الطبيب المناوب.

ـ لن يتعافى قبل شهرين كاملين!

ـ هل بامكاننا التحدّث اليه؟

ـ أجل، لقد فرغنا للتوّ من تمليطه.

دخلنا الى غرفة ذات أربعة أسّرة. لنجدُ بينوش ممدّداً فوق السرير الأخير في مؤخّرها. أشبه بلوحةِ المسافات البيضاء التي لم تدوّن عليها بعد الاشارات والأرقام. يبدو عزيزنا الطيّب شاحباً. وما إن يرانا قادمين حتّى يرتسم طيف ابتسامة من خلال شاربيه الكثيفين.

ـ ألم تعثـرا على طقم أسناني؟ يصفرُ قائلاً. لقد فقدته أثناء سقطتي ولا بد أنّه انزلق على الأرض.

حين يتكلّم بفمه الخالي من أسنانه المستعارة يبدو فمه وكأنّه بخاخ فارغ.

ـ لو كان طقم أسناني يلائمك لأقرضتك إيّاه طوعاً، تؤكّد له تلك الروح النبيلة، ولكنَّ خطمك الذي يشبه خطم جُرذ يحتاج الى طقمٍ خاص!

يحتجُّ بينو بلا حماس. ويقول إنّه يفضل خطم الجُرذ على وجه الخنزير البري. ويشكر بيرو لعَرْضه السخيّ، وينصحه بأن يدسّ طقم أسنانه في موضعٍ من شخصه الكريم لا يبدو للوهلة الأولى الموضع الملائم له.

ويكفي مثل هذا الجواب للتثبت من صحة العجوز برغم سقطته المريعة.

ـ ماذا جرى يا بينوش؟ أقول مقاطعاً سجالهما في الوقت المناسب.

ـ هلاّ حككت لي أذني؟ يتوسّل المسنّ الذي ينبغي، على ما أظنّ، أن أذكركم بأنه عاجز مؤقتاً عن استخدام أطرافه.

فألبّي طلبه بسبّابة متعاطفة. وعندما استراح صاحبنا من الحِكّة تنحنح قائلاً:

ـ ما جرى لي لا أستطيع أن أصفه لكما ذلك اني لم أفطن الى شيء منه.

ـ وكيف ذلك؟

ـ كنتُ واقفاً على ذلك الكرسي ثمّ هويتُ. بدا لي أن الكرسيّ تترجّج مع أني كنتُ وحدي ولا أحد بقربي.

ـ أكنت بمفردك في الحجرة؟

ـ لا، كان هناك أحد الموظفين. إلّا أنّه مكثَ على بعد مترين على الأقلّ.

ـ كيف استقبلوك في القنصلية؟

ـ استقبالاً جيّداً. قرعتُ باب الخدمة. ففتح لي خادم. فقلت له إنني جئتُ لإصلاح لوح الزجاج المكسور...

ثمّ يصمت، وترتسم على وجهه علامة ضيق ويسأل راجياً:

ـ هلّا نزعت لي شعرةً من أنفي. أريد أن أعطس.

بادر السمينُ، وهو الخبير في مثل هذه الأمور، إلى إجراء عمليّة الاستئصال. فتعمد أصابعه الثخينة الى فتح منخري بينوش. ثمّ تطبقُ أظافره المسودّة حداداً على الشعيرة وتقتلعها. يشهر بيرو غنيمته عالياً ويعرّضها لضوء المستشفى الشاحب.

ـ ليست الشعرة المقصودة، يقول بينو معترضاً. ولكن، لا بأس، لنكمل...

في التعامل معه ينبغي على المرء أن يتزوّد بكل أنواع الصبر وفنون وأساليب استخدامها. إذ يحتاج دائماً الى فتّاحة قناني وأنبوب من «الفازلين» لمساعدة بينوش على توليد أفكاره.

ـ حسناً، أجبتُ منبّهاً، قلت لهم إنّك جئت لاستبدال الزجاج، وبعد؟

ـ وبعد؟ أدخلني الخادمُ الى رواق طويل ودعاني للانتظار هناك.

وذهب لإبـلاغ رجلٍ كان يتحدّث عبر الهاتف في حجرةٍ مجاورة. أعتقد أنه سكرتير القنصل. كان الرجل يتحدث بصوتٍ مسموع ولا يكفّ عن الثرثرة المتواصلة. وعندما أنهى مخابرته أبلغه الخادم بأمري. فحضر فوراً. كان رجلاً فتيّاً أسمر يرتدي ثياباً سوداء تبرز معـالم سحنتـه الشـاحبـة. وسـألني عن اسم الشخص الذي استـدعـاني فأجبتـه بمـا أمـرتني أن أقول: إنني لستُ سوى مستخـدم بسيـط وإنّ ربّ العمل هو الذي أوفدني اليهم. «ربما أخطأت بالطبقة؟» أردفت قائلاً.

ثم سكت بينوش مجدّداً. فعلى عادته لا يستطيع هذا الرجل أن يدلي بتقرير كامل دون أن تتخلّله اثنتا عشرة استراحة.

ـ هلّا حككت لي جبيني.

فأحكّ جبينه. فيقول بيرو ساخراً:

ـ آمل أن لا تكون مصاباً بالحصبة يا صاحبي، وإلّا استودعتك الله!

ـ وبعد يا بينو؟

ـ بدا الرجل ذو الملابس السوداء متردّداً بعض الشيء، ثم قادني الى الحجرة ذات النوافذ المغلقة.

ـ كيف بدت لك الحجرة؟

ـ غرفة مكتب فسيحة مزينة بديكور من الجصّ الناتىء، وقطع أثـاث طراز لويس التاسع عشر وكلّ شيء... وقد غطّي إطار لوح الزجاج المكسور بقطعةٍ من الكرتون.

ـ وهل لفت انتباهك أي تفصيل غريب؟

ـ كان كلُّ شيء مُرتباً في مكانه؛ ولكن ثمة ما لفت انتباهي...

ـ مـاذا؟

ـ الوشـاحُ الذي يُغـطي طاولة المكتب. وشـاح كبير مُطرّز وله شّرابات... بدا لي الأمر غريباً بعض الشيء.

ـ هذا كل شيء؟

ـ لا، مهلاً. تحت طاولة المكتب لاحظت أنَّ جزءاً من الموكيت قد انتزع وبدت أرضيّة الحجرة.

ـ إنّه أمرٌ مثير، أقول.

ـ حقّاً؟ يقول بيرو بلهجة تعجّب.

ـ بالطبع ! افترض للحظة أنّ القنّاص قد أفرغ مشط بندقيته من نافذة المنزل المقابل على شخصٍ ما كان يجلسُ الى طاولة المكتب؟

ـ وهذا يعني؟

ـ هناك احتمال أن تكون بعض الرصاصات قد أصابت المكتب، وأن تكـون الضحية قد وقعت أرضاً ونزفت دمها على السجادة، أليس كذلك؟

ـ تحليـل لا بأس به، يقـولُ البـدين. تحليـل لا بأس به على الاطلاق. لا يعـوزك الوقـود هذا اليـوم لاتقـاد الذهن. لا أقصد المحاباة ولكن تبدو لي في أحسنِ حال.

نستأذنُ عزيزنا بينوش بالذهاب في الوقت الذي بدأ يتحسس فيه حِكَّةً في عجيزته.

*

* *

الكوميسير غائب، إلّا أن معاونه يستقبلنا بكلّ الجفاوة(*) التي تليق بنا. إنه شاب قصير القامة ومثقف، ولا يصعب على المرء أن يتبيّن ذلك على الفور عندما يرى تخطيط ربطة عنقه.

ـ آه! يقول، قضيّة الزجّاج؟ حادث عادي أودى، للأسف، بحياة أحد رجالنا!

ـ هل استجوبتم موظفي قنصلية الابانيا؟

ـ على الأقلّ استجوبنا الخادم الذي كان حاضراً في الحجرة. ويبدو أن الزجّاج كان رجلاً مُسناً ويمكن القولُ أنه أخرق كحرفي. فقد اعتلى كرسيّاً سريع العطب ليثبت لوح الزجاج في مكانه. وفي الأثناء انكسرت احدى قوائم الكرسيّ تحت وطأة الثقل فهوى هذا الأحمق من النافذة.

ـ وهل عاينت الكرسّي؟

ـ بالطبـع. إنّهـا مقعد من طراز نابوليون الثالث من الخشب المخروط الأسود والمطعّم بعرق اللؤلؤ. كان محض جنون أن يعتلي بثقله مثل هذا الكرسي الهشّ.

متكلّف العبارة ـ أليس كذلك؟ ـ هذا السكرتير، ثم يردف قائلاً:

ـ في العادة، يستخدم الزجاجّون سلماً.

ـ أمّا هو فقد تزوّد بما يُخفّض رتبته، يمزح البدين الذي أربكته نبرة محدثنا وحركاته.

ويطرق عظمة كتفيه.

(*) خيط بين الحفاوة والجفاء.

ـ الخلاصة، انه قضاء وقدر.

ـ إن خلاصتك متسّرعة بعض الشيء يا بيرو.

ارفــع سمّاعة الهاتف واطلب الاتصال بالمستشفى حيثُ تمت معالجة بينوش. ممرّضة هناك تستعلم عن رغباتي فأرجو منها أن تذهب الى بينوش لتسأله عن الكرسي الذي اعتلاه في القنصلية. فلم تخف استهجانها إلاّ ان صفتي كشرطي ذي رتبة وصوتي المخملي أقنعاها بعدم التردّد وذهبت لتسأل.

ـ أنت بالفعل كالقديس توما، قال البغيضُ هازئاً.

بعد ذلك بدقيقتين تزفّ إليّ الممرضة جواب بينوش الذي قال انه اعتلى كرسيّ مطبخ عاديّةٍ أحضره موظف القنصلية في بادرة لطف منــه. وإذ أرضيتُ فضولي أضع السمّاعة. أما بيرو الذي سمح لنفسه أن يسترق السمع عبر السمّاعة الإضافية، فيتّخذُ سحنةً أشبه بغسيل الفقراء المنشور ليجفّ.

ـ كيف حزرت؟

ـ إن بينوش المريض ليس من النوع الذي يوكل هيكله المتداعي الى كرسيّ من طراز نابوليون الثالث.

ـ وهذا يعني؟

ـ أن جماعة القنصلية هم الذين دفعوه وأنهم تعمّدوا بعد ذلك، في بادرة سخاء، التضحية بقائمة كرسيّ من طراز رفيع لكي يؤكّدوا روايتهم للحادث.

يعود معاون الكوميسير الذي ترك لي حريّة استخدام تلفونه.

ـ ثمة ما ليس على ما يرام، يا حضرة الكوميسير؟

ـ بالعكس، اقول. كلٌّ شيء على أفضل ما يرام.

* * *

في السيّارة يطرح عليّ بيرو السؤال الذي يدغدغُ نخاعه الشوكي.

ـ حسناً، لنسلِّم جدلاً أنّ القضيّة مدبّرة، ولكن كيف استطاعوا أن يرموا ببينوش من النافذة ما دام الخادم مكث في مكانه على بعد مترين؟

ـ كانت الكرسي موضوعة على سجّادة ولم يكن على الخادم إلّا أن يسحب طرفها. أو ربّما اقترب شخص آخر خلسةً من الخلف... هناك ألف احتمال.

ـ وفي رأيك، لماذا أرادوا التخلّص من الأب بينوش؟

ـ لأن أحداً في القنصلية لم يستدعِ زجّاجاً فبدا مجيئه اليهم مثيراً للشبهات.

لم يقتنع السيّد الجليل بتفسيري.

ـ لا أعتقد أنّ ما فعلوه هو الحلّ الأمثل للتخلّص منه. ففي دفعهم إيّاه عبر النافذة تزداد الأمور تعقيداً ومن شأن فعلتهم هذه أن تضاعف الشكوك وتوفّر للشرطة الذريعة القانونية للتدقيق في المكان.

يصعقني برهانه. ليس هراءً بالتمام ما يقوله هذا الرجل البدين برغم أنه هو الذي يقوله. فبأية حال، ما الضير في أن يتركوا الرجل يستبدل لوح الزجاج المكسور؟ إن المخاطر في ذلك لا تضاهي مخاطر شروعهم في جريمة أخرى.

ـ هل أنت مسلّح، أيها البدين؟

ـ أحمل ثاقبة الأبدان، أجل. هل تكفي؟

ـ ستقوم بجولة رسميّة في القنصلية.

ـ حسناً. وماذا سأقول للألابانيين؟

ـ ستقول إنك شرطي وإنّك كلّفت بمتابعة التحقيق حول القضيّة لأنّ الزجّاج استعاد وعيه ويدّعي أنّه دُفع عن الكرسيّ. وستراقب ردود فعلهم.

يُبدي السمينُ ابتهاجاً.

ـ حسنـاً.

ـ أتشعر بالـخوف.

ـ لا، قل لي يا سان ـ أنطونيو هل رأيتني مرتعداً من قبل؟ دعني أتصّرف وصدّق أنهم سيعترفون لي بما يملأ الصفحة الأولى من جريدة الباريزيان ليبيريه»!

ـ بنباهة يا بيرو، أسمعتني؟

ـ عندي ما يفوق حاجتي من اللباقة، وقد تحدّثك جمهرة من النساءِ بهذا الشأن.

ـ وخصوصاً لا تلمّح بشيء إلى الرشقات الشبحيّة التي أطلقت على القنصلية.

ـ ولكن قُل بربّـك، أتحسبني صاحب الرأس المجـوّف! يجيب مستاءً. قلت لك إنني أجيد مهنتي جيّداً! لقد عملنا سوياً لسنوات وينبغي أن تكون واثقاً من ذلك!

الفصل الخامس

ـ هل أزعجك، يا سيّد موربيون؟

أعتقد أنها المرّة الأولى التي أناديه فيها بلقبه (ذي المهمان)(*)، وكدتُ أعضّ على شفتيّ إلّا أنّ موربيون بدا غيرَ مبالٍ. لقد اعتاد الأمر. وبأية حال، أليس لقبه هذا هو الذي جعله يتذكرني هذا الصباح؟

ـ لا، أبداً، يا صديقي الصغير.

ـ هل كنت في المنزل عندما هوى الزجّاج...

ـ أجل ولكن للأسف الشديد لم أكن عند النافذة. لقد سمعت جلبـة ارتطام مكتومة وصراخاً وأصوات حشد. وعندما هرعت الى النافذة كان قد قُضي الأمر...

ـ هلا أعطيتني منظارك مرّةً أخرى. فالعرض متواصل في المبنى المقابل. حفلتان، صباحيّة ومسائية...

يعثر على المنظار المقرّب داخل دلوٍ أبيض فارغٍ مؤقتاً ويعطيني

(*) Morpion : تعني الأصل: طبّوع (قمل العانة).

إيّاه. فأكمن خلف ستارة النافذة المزّقة. وقبالتي أرى مصراعي النافذة وقد أُغلقا من جديد. وآمل أن يتمكّن زميلي البدين من فتحهما. وعندها، ستتسلّل نظراتي الرهيفة إلى هذا الحرم الدبلوماسي! وقد يسأل بعضكم، من بين أكثركم رباطة جأش، لماذا لا أقوم بنفسي بهذه الزيارة الخاطفة الى القنصلية ما دام فضولي متوقّداً الى هذا الحدّ. وأقرّ استثنائياً أن هذا التساؤل أكثر من محقّ. ولكن، كما ترون، يا عصبة النباتيين، أنا أحرص على حفظ قواي للطامة الكبرى، كما كان يقول أحد معارفي، ذلك أن سان أنطونيو يعني مفرزة النخبة، الشجاعة إيّاها، النجم الذي لا يُضاهى: ولا يتدخّل إلاّ في عزّ المعمعة (كما يقولُ الأرمن).

ومصوّباً منظاري المقرّب، مكثتُ منتظراً.

ـ الا تحتسي معي كوبَ كاكاو؟ يتمتم موربيون.

ـ بكلّ سرور، أجبتُ ساهماً.

فجأة فتحت المصاريع. لألمح وجه زميلي الأكول البدين. السيّد بيروربيه مستغرقاً في حديث مطوّل مع رجلٍ يرتدي ملابسَ سوداء فأدرك أنّه السكرتير الذي وصفه لي بينوش. فأدع هذين السيّدين لشأنهما كي أتفحّص مؤخّر الحجرة. فألمحُ هناك من خلال العتمة، طاولة مكتب مطعّمة بالبرونز الباهت. وبدل أن تبدو لي كأنها مكتب سفير أجدها أقرب الى مكتب كئيب! إذ أن الوشاح الذي يُغطي الطاولة يجعلها تبدو أقرب الى تابوت لميت. خصوصاً أن سجّادة فردت عليها وغطّت كلّ الحيّز الذي تحتله. فأعود لمراقبة بيرو ومحدّثه. فلاحظت أنّ هذين السيّدين يتناقشان بحدّة. ولو أنّ ضوضاء الشارع ليست بمثل هذا الصخب لتمكنت بالتأكيد من

سمـاع حديثهمـا. تدوم المحـادثـة ربع ساعة تقريباً، وبعد ذلك يستأذن السمينُ بالمغادرة.

ـ هاكَ كوباً من الكاكاو! ينبئني موربيون اللطيف وقد دسَّ بين يديّ كوباً مُترعاً بسائلٍ ساخن.

ودون حذرٍ منّي أتذوّق الشراب.

ـ هل أنت واثق يا أستاذ من أنه شراب الكاكاو؟

وراح موربيون يحتسي جرعةً ويهزّ رأسه برفق.

ـ لا، لقد أخطأت: إنّه طحين الكتّان، ولكن ما الفرق؟ المهمّ أن يقتات المرءُ بشيء، يا صديقي الصغير. فالشراهة شكل من أشكال التبرجز.

ـ ربّما كنت على حقّ، أوافقه، ولكن ألا تراودك فكرة أن تصنع مادة ما من قشرِ الموز؟

ثم هرعت لملاقاة زميلي البدين.

*

* *

كان متهـالكـاً على مقعد السيارة، صافناً كتمثال بوذا. وأنفه المزرقّ يشبه ثمرة فراولة أهملت في منتدى الجمعية الزراعية بعد نيلها الجائزة الأولى.

ـ لا تبدو لي على خير ما يرام، يا بيرو؟ أبادره بالقول.

ـ لأنني لست على ما يرام.

ـ بسبب ماذا؟

ـ بسبب الذي سببه!

لن يعدم القارىء ملاحظة الدقّة والإيجاز والقوّة الايحائية في إجابته. أمّا أنا فتذهلني.

ـ إنك في ذروة امتلاكك اللغة، يا بيرو، أقول مُبدياً إعجابي. إذ لا تغفل عن لطائفها وحذافيرها. وتقلّبها كما يقلّب الأكتع مضرب التنس. إذ يكتسب الفكر الفرنسي، بفضلك، مساراً لا يُضاهى من حيث المتانة.

«كم أودّ لو أستطيع أن أحتفي ببراعتك اللفظيّة بنشيدٍ أنظمه تقريظاً لمجدك. وحبّذا لو أملك عشر فصاحتك لأمجّد به الأعشار التسعة التي تمتلكها أنت!

أثمله كلامي قليـلاً، بيرو المسكين. وبدا جبيُنه الضيّق كمثل شريط الآلة الكاتبة أضيق أيضاً وأيضاً. أما عينه المائلة دائماً الى الاحمرار فراحت تزداد احمراراً.

ـ إذا كنت تحسبُ أن ساعـة العمل قد حانت، فأنا لها، قال السيّد المبجّل مويّخاً. فأنا لا أخشى أحداً في لعبة الصبيان هذه.

فأرضخ دون مقاومة.

ـ إذاً؟ ماذا عن زيارتك القنصلية؟

ـ قنصُليّ أنت نفسك! لقد خدعوني، يا فتيان. لقد باعني هؤلاء القرود هراء الشيطان نفسه. يا لهم من مكّارين! تباً وتباً لهم من مكّارين!

ـ أفصـح...

ـ قبل كلّ شيء قالوا لي انهم لم يستدعوا زجّاجاً على الاطلاق، أليست بدعة؟

ـ كلّ إعجابي.

ـ بدعة لا بأس بها، بالفعل.

ـ ثانيـاً، قالوا لي إن بينوش اعتلى كرسيَّ مطبخ لتجهيز إطار اللوح. ثمّ حين ترجّل عنها لقطع الزجاج وأراد أن يعتليها مجدّداً فاختلط عليه الأمر واعتلى كرسياً أخرى كانت على مقربة منها. فمثل هذا التفسير يجيب على كلّ تساؤلاتنا. هل تلاحظ مدى دهائهم!

ـ وهل أخبرتهم أن الزجّاج يزعم أنّه دُفع عن الكرسّي؟

ـ طبعـاً.

ـ بماذا أجابوا؟

ـ ضحكوا. وقال لي النصاب ذو الملابس السوداء والذي حدّثنا عنه بينوش إن الزجّاج كان ثملاً بلا ريب وليس عليه إلاّ ان يتقدّم بشكوى حسب الأصول النظامية إذا شاء. ويبدو لي واثقاً جدّاً ممّا يقول، أوتعلم...

ـ حدّثني عن المكتب.

ـ هنـاك الوشاح الذي يُغطّيه إلا أنهم وضعوا سجّادة تحته. أردت أن أرفـع الوشاح إلاّ أن السكرتير راح يزبدُ ويرعد متذرعاً بأنني اقفُ على أرض الابانية ولا يحقّ لي أن أتخطى حقوقي. وأنت تعرفني جيّداً؟ أحمدُ الله أن تعليميَ أكثرُ من كافٍ، ولكنَّ الحقوق

مسألة أخرى وأعلم جيّداً أن لديّ ثغرات (إحداها بحجم بحيرة) في هذا المجـال. كذلك آثرتُ السلامة، فضلاً عن التعليمات التي تلقيتها منك بأن...

ـ حسنـاً يا بني! لقد أحسنت فعلاً. هناك إجراء شكليّ أخير وبعد ذلك الخاتمة فوراً.

ـ أي إجراء أخير؟

ـ إذهب واستجوب حاجبة القنصلية بلطف، لتستعلم إذا كان القنصل يقيم في القنصلية أم انها مجرد مكاتب رسميّة.

وبـوداعتـه المـأثـورة يبتعـد نيرو مجـدّداً . إنّـه جَرْوٌ مطيع وباستطاعة أي كان أن يرمي اليه الكرة مراراً، وفي كل مرّة يلتقط الكرة ويعيدها الى راميها.

*

* *

ـ الـخلاصة؟ سأل العجوز.

إنها التاسعة مساءً ما يُعادلُ في رطانة توقيت محطات السكة الحديد، الحادية والعشرين تماماً. يبدو القائدُ متعباً بعض الشيء. ويخطر لي أنّه بحاجة لأن يرتاد أمكنة الطبيعة بين الحين والآخر، لكي يُرخي أربـطة عصابه. فلفرط ما يمكث قابعاً في مكتبه يكاد يفقدُ مظهره الآدميّ. وأراهنكم بكبد عجل مقابل كبد السماء أنه لم يرَ عشبةً خضراء واحدة منذ نحوَ عشرين عاماً. فالكون في عينيه عبارة عن إضبارات وملفّات... وينبغي أن تكون للمرء سليقة دانتي نفسه لكي يروي تفاصيل ما يجري في شعاب دماغه.

ـ الخلاصة؟ يردّد قائلاً بصوته الذي يشبه خرتشة عودٍ ثقاب مبلّل فوق محكّه المبتلّ.

ـ استنتاج غير رسمي، يا سيّدي المدير، قلتُ متابعاً.

ـ بالطبـع.

ـ أنا أعتقد أنه خلال الأيام الأربعة المنصرمة تعرّض أحد أفراد القنصليـة الى محـاولة قتـل. فقد كمن قناصة في منزل الاستاذ موبوي وأطلقوا الرصاص على شخصٍ ما في غرفة المكتب المقابلة لمنزل أستاذي السابق. ولأسباب مجهولة، تكتم موظفو القنصلية على الأمر. وبالغوا في تكتمهم حتّى أنهم لم يستبدلوا الزجاج الذي حطمته الرصاصات. مَن الذي قُتل؟ لغز!

ـ هل قُتل أحد بالفعل؟

ـ يبقى أن نعمل على ايضاح هذه المسألة. وبأية حال، لقد نزفت الضحية، لأنهم سارعوا الى نزع جزء من الموكيت. وعندما حضر اليهم بينـو متنكراً في زي زجّاج، لم يتمكن من خداعهم وأرادوا التخلّص منه نهائياً. أعتقد انهم لم يرتابوا بكونه شرطياً بل حسبوا على الأرجح أنّه أحد أفراد جماعةٍ معادية تشن عليهم حرب عصابات.

ـ ولكن من المستهجن فعـلاً أن يلجـأوا الى مثل هذه الحلول المتطرّفة، فهي لا تخلو من بعض الخطورة.

ـ الوقائع في متناول يدك.

ـ بعض الوقـائـع، أليس كذلك يا فتيـان؟ وما إن أنهي هذه

العبارات الجميلة حتّى يغرّد هاتف العجوز. فيرفعُ حليقُ الرأس السماعة.

ـ على السمع!

ويُصغي بالفعل. لا بل يصيخ السمع مطوّلاً. ولا بدّ أن ما يسمعه مثير جدّاً، ذلك أن وجهه أصبح أشبه بقناعِ الموتى. وفي الختام أعاد السمّاعة الى محملها.

ـ إذاً، هاك ما يستحق العناء، يا عزيزي سان أنطونيو، يقول لي بصوته الذي يليق ببدينٍ عجوز.

أنتظرُ التتمّة.

ـ لقد تسلّل شخص ما مُتنكّراً بزي ممرّض الى مُستشفى بوجون وأطلق الرصاص على نزيل السرير المحاذي لسرير بينو. مات المسكين، لقد قُتل على الفور.

ولم يكد ينهي عبارته حتّى شارفتُ عتبة الباب.

ـ سان أنطونيو! ناداني البوم، اطلعني على المستجدّات.

الفصل السادس

أفضّل أن أقول لكم يا إخوتي أن هناك حركة غير اعتياديّة في المشفى! والجناح الذي وقع فيه الحادث يغصُّ بالناس من كل نوع. الصحافيون يعلنون ابتهاجهم المهني بالتماع فلاشات كاميراتهم برغم احتجاج موظفي المستشفى. ولحسن الحظ كان هناك بعض أفراد الشرطة لكي يصدوا الغزاة بقبعاتهم.

- ايزعجك ان تحكّ لي قمّة رأسي؟ يقول بينوشيه متوسّلاً. تخيّل أن كلّ هذا الانفعال قد سبّب لي طفحاً جلدياً!

يحرث بيرو رأس رفيقه بمخالبه القاسية. ويَجزيه بينو امتناناً الرفّة تلو الرفّة من أجفانه.

- ماذا جرى؟ سألت.

يتنحنح المسنُّ الرقيقُ ويدفع بطرف لسانه شعيرات من شاربه كانت تدغدغ شفتيه.

- كنتُ نائماً. وسمعتُ طقطقة قشور جوز. ففتحتُ عينيّ ولمحت طيفاً أبيض يلوذ بالفرار. كانت سحابة من البارود تعبقُ في أرجاء الغرفة. وكنّا، هؤلاء السادة (ويُشير الى نزلاء الغرفة المذعورين) وأنا

بمعيّتهم، نسعلُ حتّى أنفاسنا الأخيرة. لقد استخدم الجاني سلاحاً مزوّداً بكاتم للصوت.

قلت لرفيقي بينوش: وهما عجوزان ودودان قيد التصليح.

ـ هل رأى أحدكما الجاني؟

ـ أنا رأيته، يقول الأكبر سنّاً.

ـ انه رجل بدين، أصفر اللون، وله صلعة ملساء شاحبة.

ـ لقد حسبته أحد المناوبين الليليين، ولذلك لم أعِره انتباهاً. تأتأ الرجل الذي يخفي وراءه ثلاثة أرباع القرن وهو يتأملني.

ـ وبعد؟

ـ اقترب من كلّ الأسّرة وتمعّن في وجوهنا الواحد تلو الآخر.

يتكتّل الانفعال غصّةً في حلقه.

ـ وبعد؟ سألت بالحاح.

يُشير المريض الى السرير المنكوب. يتأبط وسادته ويرفع جذعه قليلاً شاخصاً في الفراش المشؤوم. وإذ يراه شاغراً يرتعد كيانه.

ـ ما إن وصل الى هناك حتّى شهر مسدسه وراح يطلق النار على رفيقنا في الغرفة.

ـ دون أن يوجّه اليه أيّ كلمة؟

ـ دون أي كلمة. وبأية حال فقد كان المسكين نائماً.

بمعنى ما، يلاحظ بيروربيه الحصيف، إنّها نهاية جميلة. على الأقلّ فيما يعنيني، فلو كان عليّ أن أختار لاخترت طوعاً أن ألفظ الروح أثناء غفوتي.

أرمق البدين في غمرةِ استرساله في تأمّلاته الحصيفة. فالسيّد بيروربيه من طراز أولئك الملاّحين الذين لا يتبعون دائماً خط غرينويتش.

ـ أين الجثة؟ سألت ممرّضة شابة وجميلة مثل قلب النهار الذي ذهبتُ فيه برفقة ابنة عمّي إيفيت الى حقل الفراولة.

ـ نُقلت الى مشرحة المُستشفى.

ـ أودّ أن أعودها هكذا تقتضي اللياقة!

لم تستقبح الطفلة البريئة خفّة كلامي. فقادتني بابتسامة منمنمة في شكل بنفسجة عبر أروقة المشفى لنستقل مصعداً صُمّم خصيصاً لنقل أجسادٍ أفقية فنفضي الى قاعة اجتماع اللحوم المبرّدة. وهناك نجد الفقيد ممدّداً على نقالةٍ بعجلات وقد غطي بشرشفٍ تأنفُ منه الجرذان (كما يقول المغاربة). وإذا به رجل في الخامسة والخمسين تقريباً عاديّ الملامح. إنّه مثال الفرنسي المتوسطً الحال بكلّ ألقه؛ ولا شيء في حياته بالتأكيد كان لينبىء بنهايته المفجعة صريع رصاصات قاتل مأجور.

ـ مَن هو؟ أسأل.

ـ يُدعى لوثان ومهنته خبّاز. كان يعاني من تقرُّح في المعدة.

ـ إذاً، يمكن القول انه تماثل للشفاء الآن، تمتمت قائلاً. وكيف استطاع القاتل أن يصل الى سريره؟

ـ كنتُ المرضة المناوبة، قالت بلطف مقلّبة موازين الحرارة وهي تغطي وجه الخبّاز مجدّداً. ثمّ جاء ذلك المرض. وكان يضع برنساً أبيض فوق كتفه وسألني عن سرير الزجّاج الذي نقل الى المستشفى

خلال النهار بعد أن وقع من النافذة.

أمسكت بقوّة بذراعها حتى لا تبدر منها أي محاولة للإفلات. وقد بدا لي العكس، أن مبادرتي قد استهوتها.

ـ ألم يسبق لك أن رأيتِ هذا الممرّض من قبل.

ـ لا، أبداً. ولكنّ عدد العاملين في المستشفى كبير جدّاً. وظننتُ أنه ممرّض يَعْمَلُ في قسمٍ آخر، أوتدرك قصدي؟

ـ وبعد ذلك؟

كانت البرودة قارسة في هذه الحجرة وربّما لهذا السبب تميلُ الصبيّة للالتصاق بي. ألا تعتقدون أنه السبب؟

ـ أجبته أنّه وضعَ في الصالة ب وأنه يحتلّ السرير رقم ٣.

وتتورّد وجنتاها.

ـ لقد أخطأت، فالجريح المعنيّ يحتلّ السرير رقم ٤.

اسمعوا يا فتيان، لا أدري إذا كنتم تشاطرونني الرأي (وإذا كنتم لا تفعلون فسيّان عندي) ولكني أحسبُ أن ملاكنا الحارس يستحقّ في بعضِ الأحيان سلامَ تعظيم على أنغام الأرغن. والملاك الحارس الذي يسهر على بينوش يستحق اليوم هالةً من النيون! وأشهدكم الحقّ، كما قال أحد القضاة. فها هو الرجلُ الطيِّب (واقصد هنا بينوش) يسقط من الطبقة الثالثة دون أن يقضي وينجو من رشقات قاتل محترف لأنّ المرضة المناوبة لها رأسٌ طائش. ولذلك ينتابني حنوّ غامر حيال هذه الصهباء المحبّبة التي أنقذت حياة صديقي بينو.

طوّقت خصرهـا ومنحتهـا أفضل ما في جعبة الكوميسّير سان أنطونيو من جوائز: القبلة النهمة المبقبقة الرطبة المريّة وقد راق لها ذلك.

ستحتجون بأنّ المكان ليس ملائماً لمشهدٍ من هذا النوع، أليس كذلك، أيـا زمرة من المتزمتين؟ أيجب أن أكرّر لكم أنني لا أبالي باحتجاجاتكم وأن بامكانكم استخدامها بمثابة تحاميل؟

أعلم جيّداً أنّ من بين شروط التأهيل للعمل في المستشفيات ليس من الضروري أن تكـون الفضيلة ديـدنـاً وديـنـاً، ومع ذلك فإنّ صراحتي المأثورة ترغمني على القول إن هذه المرضة طويلة الباع (بهذا المقدار) في علاج البروستات. ولن تقدّم لي عرضاً شاملاً عن مهـاراتهـا الفميّة إلّا حين ولجنا المصعد. وتوقفت المقصورة بين الطبقة الأرضية والطبقة التي تحتها ونشرع في لعبة «كيف الحال ناحيتك، كيف الحال ناحيتي، في نظام المشي المرصوص».

أشعر بأني في حالة جيّدة جدّاً وقد ذهلت الفتاة بالطبع لتفتُّح قدراتها استجابةً لمهاراتي.

الإرتجـال علمٌ ودرايـة، أيّهـا الفتيـان. وأنا أنتمي الى سلالةِ الـمُرتجلين. هيّا، اسألوا هذه الفتاة وسترون بماذا ستجيبكم. لقد منحتني شهادة بذلك ولكني نسيتها في دُرج قمصان يوم الأحد.

فَورَ عودتي أجـدُ بيرو مُنهمكاً بالتهام السكاكر. ويخبرني بينو بشيء من الحـدّة أن البـدين قد نهبَ محتويات المنضدة التابعة للسريـر المجاور. وأضاف أنّه أمرٌ غير لائق، وأنّه يتبرّأ رسمياً من زميله. وبهزة كتفين لا مبالية يشيرُ بيرو الى ضحيته: رجلٌ عجوز

ضئيل الحجم تصل أرنبة أنفه المعقوف الى ذقنه، ينامُ محدثاً جلبةً أشبه بضوضاء خلّاط كهربائي.

ـ أنظر بحق السماء إلى هذا الجدّ البائس، يقولُ البدين المُتهكّم. يبدو لي انه مصاب بالخرف ثم كيف له أن يمضغ حبة السكاكر باللثتين. إن مغارة فمه فارغة تماماً، كأنّه يَسيرُ على مطّاط العجلة، تخيّل. فباستثناء هريسة البطاطا واللبن، لا يستطيع أن يأكل شيئاً. ويبدو زمنَ عضّ الرمّان بملء الأسنان حقبة من تاريخه الغابر. أما من جديد؟

ـ لقد ثبت لديّ أن بينو هو المقصود. ونجا بفضل معلومة خاطئة وكان لجاره المسكين أن يشرب عنه حساءَ الرصاص.

فيمتقع المسنّ المتهالك.

ـ ماذا تقول، كنتُ أنا الـمُستهدف؟ يقول مُتلعثماً. ولأيّ ذَنْب؟

ـ لا بد أن رفـاقنا الأعزّاء في القنصلية هم الجناة. اسمع يا بينوش، ستحاول أن تستجمع كلّما تذكره حول زيارتك للقنصلية. فلا بد انهم يحاولون تصفيتك لأنّك شاهدت أو سمعت شيئاً خلال زيارتك للألابانيين. شيء ما على قدرٍ من الأهمية، ويريدون أن تنساه، أو أن تدفن معه، مهما كلّف الأمر، أتسمع ما أقول؟

فيقول بنبرةِ اليائس.

ـ لم أرَ أكثر مما قلت لك.

ـ ولكنك سمعت. ألم تقل لي ان السكرتير كان يجري اتصالاً هاتفياً في الحجرة المجاورة؟

ـ كان يتحدث بلغةٍ غريبة! يقول بينو معترضاً.

فأصوبُ سبّابتي الحصيفة نحو طاس دماغه.

ـ حُكّ قليلاً الموضع الذي تشير اليه، يتوسّل الهَرِمُ الرقيق! كم احس بالحكة.

فألبّي طلبه. وأقول حاكّاً جلدَ رأسه:

ـ إذاً، لا بدّ أنـه كان يُصّرح بأشيـاء بالغة الأهمية، يا بينو. ويريدون قتلك تحسباً لاحتمال أن تكون قادراً على فهم الألابانية.

ـ لكنّي لا أفقه شيئاً منها! يصرخ المسنُّ هلعاً. يجب أن تقول لهم.

فيقـول السمـين هازئـاً وقـد فرغ من التهام حبوب السكاكر المسروقة من خزانة الجار.

ـ سننشر إعلاناً في الجرائد، يقول الكركدن: يُعلمُ المفتش الأوّل السيّـد بينو عناصر قنصلية الابانيا أنّه لا داعي بعد الآن لقتله نظراً لكونه يجهل لغتهم».

ـ ليس هذا وقت المزاح، يُقاطعه اللطيفُ، لقد قُتل رجل!

ـ وبما أن القتيل ليس أنت، يُجيبُه العنيد، يُصبحُ الامرُ سيّان عندي.

ظريف، هذا البيرو. نفسٌ طيبة ولكنّه قليل الحساسيّة في الظاهر. ذلك أنّـه يحتفظ برأسماله العاطفي للرفاق والاصحاب. أمّا موت رجل فليس في عينيه أكثر من خبرٍ في زاوية الحوادث المتفرّقة التي يقرأها حجّاب العمارات.

ـ لا بأس، إنها نجاتك الثانية لهذا اليوم، يقولُ هازئاً. كأنّك أتيلا مُجسداً يا بينوش.

وأعطي تعليماتي الواضحة بأن يُنقل المحترمُ الى غرفةٍ بسرير واحد وأن يخضع للحراسة المشدّدة. وبعد ذلك نغادره نهباً للحكة والصفح الأكّال.

الفصل السابع

الأمسية مُنعشة مثل كأس الشراب مبرداً بقطعِ الثلج. يبلغني بيرو بأنّه جائع ويشعر بالنعاس. ويودّ أن يأكل طبق النقانق بالعدس أو طبقاً من اللحوم المقددة. وبعد ذلك سيذهب ليغفو، على الطريقة السينمائية، بين ذراعي برِت، زوجته.

ـ ماذا بعد؟

ـ تراودني رغبة مُلحّة في أن تقوم بزيارة خاصة الى القنصلية.

ـ في مثل هذه الساعة! يقول بنبرةِ استياء. لكنّها مقفلة يا صاحبي!

ـ بالضبط، ولذلك سأفتحها.

ـ لن تجد أحداً هناك!

ـ لسروري العظيم.

يصعُبُ إقناعه ما دامت النقانق تتراءى في علبة نخاعه قبل أن تستقر مريّة في كيس الهضم.

ـ وثمة شيء آخر، يا سان أ.

ـ لا داعي للقول، ولكن بأية حال هاتِ ما عندك.

ـ باقتحامك لباب القنصلية ترتكب جرم انتهاك الحدود!

ـ أعلمُ يا بُنيّ!

ـ والبلية الأعظم أنّك ضابط شرطة، مما يُضاعفُ الأدلّة الجرمية، وقد ينشأ عن ذلك إشكال دبلوماسي.

لم يكن مخطئاً في قوله، هكذا كنت أفكر في قرارة نفسي. وإذ انتبه الى حيرتي، واصل هجومه مُركّزاً:

ـ ألا ترى أنّك قد تسبّب اندلاع حرب بين ألابانيا وفرنسا؟ وعندئذٍ تكون الطامة الكبرى. وخصوصاً فيُ مثل هذه الأيام التي اعتدنا فيها أن نخسر كلّ الحروب التي نخوضها! ستقول إن الابانيا بلد صغير. لكني أودّ أن ألفتك الى انه كلّما صَغُر البلد الذي نحاربه ازدادت حظوظنا في خسارة الحرب. وأكاد أقول إننا لن نصمد لثمانٍ وأربعين ساعة وبعد ذلك سترى القوات الالابانية تجتاح ساحة قوس النصر. أوتدرك معنى هذا؟ الاحتلال وخنق الحريّات، وما إلى ذلك! لو كنا لا نزال نملك قوّتنا الضاربة لما خشيتُ شيئاً. ولكنّ الحقيقة أن ما لدينا من القوى الضاربة تجده في حي البيغال باحثاً عن الغواني! ومرّة أخرى سيأتي الأميركيون الطيبون لنجدتنا. وتذكّر أن لا فاييت كان استثماراً موفّقاً!

وينطلق البدين مأخوذاً بحميّاه. الآن وقد اعتلى المنبر، فلا بدّ أن يلعب دور «السيد سميث في مجلس العموم».

ويردف قائلاً:

ـ أوتدري لماذا كلما جاء الاميركيون لانقاذنا تُملأ الحيطان بشعارات «أيها الاميركي عُد الى بلادك»؟

ـ لكي يعودوا الى بلادهم، بحقّ السماء!

ـ بالطبع، ولكن أتدري لماذا الإصرار على عودتهم الى ديارهم؟

ـ هلّا أخبرتني؟

ـ لكي يعدّوا العدّة للمجيء مرّة أخرى لنجدتنا. لا، لا، صدِّقني، يجب أن تمعن التفكير في الأمر. وافعل ذلك من أجل فرنسا يا سان أ. إذا كنت لا تريد أن تفعله من أجلي. ففرنسا لا تعوزها الأزمات في الوقت الحاضر!

وإذ أمكثُ صامتاً يحسبُ البدين أنَّ مرافعته قد أقنعتني. فيتمخط محدثاً نخيرَ بوق ويتفحّص نتاج فعلته ويلفُّ عليه المنديل ويعيده الى جيبه ويقول:

ـ أعتقد أن طبق شوكروت أفضل بكثير ممّا قد تفعله في لحظة طيش.

أفرملُ وأركن مركوبتي بمحاذاة الرصيف.

ـ لماذا توقفت؟ يسأل النهمُ متلفتاً من حوله، لا أرى مطعماً في الجوار!

وعندئذٍ يلمح سارية قنصلية ألابانيا فيقول ساخطاً.

ـ لك أن تفعل ما تشاء، أما أنا فلن أقدم على خطوة قد تُغرقُ بلادي في أهوالِ الحرب.

ـ لم أطلب منك أن ترافقني يا إصبع النقانق التالفة، قلت له بحدّة، فقط انتظرني هنا.

حملت مصباحي الكهربائي بعد أن اطمأنيت الى وجودِ مفتاح

«سمسم» سحري في جيبي وغادرت البدين مُستغرقاً في خواطره الآثمة.

*

* *

اجتزت البوابة بسهولة ولم ألمس مفتاح الإنارة. وصعدت السلّم بسرعة من طبقة إلى أخرى حتى التمعت لوحة القنصلية النحاسيّة في عينيّ. ويطالعني بابٌ ضخم ومتين ذو مصراعين. وقد جُهّز بعددٍ من الأقفال يوازي عدد الأزرار في ثوب راهب. فأدركت مشقة المهمّة التي تنتظرني. ولكنكم تعلمون بلا ريب أن المهام الصعبة لا تخيفني. فأنا من طينة الرجال الذين يهرعون لترميم سور الصين أو لحفر نفقٍ بواسطة ملعقة شاي لجرّ مياه المتوسط الى مغاسلهم.

بدأت بمعالجة القفل الأوّل. ليس من النوعِ العنيد. ومع ذلك فإنّ الفاصل مصنوع من مادة الايريديوم والمزلاج من مادة مجهولة. وفي آخر المطاف أُفلح في تَفْحِ اللَفق(*) (أعذروا أخطاء الطباعة)، أردت أن أكتب: (فتح القفل).

وأنتقل الى الثاني، ثمّ الى الثالث. ولا أواجه صعوبة إلاّ في معالجة السادس والثلاثين. وينبغي القولُ إنه عزيز اللسان لا عزيز المكانة! ويستغرقني أربع دقائق وتسعاً وعشرين ثانية، ثمّ يستسلمُ لإغوائي وأدلفُ أخيراً الى المكان. لا بدّ أنكم فطنتم، ان مَرامي واحدٌ وحيد وهو أن أصل مباشرةً الى غرفة المكتب العتيد حيث لوح الزجاج المكسور. ولحسن الحظّ أنني أتمتع بإحساس صائب

(*) أخطاء الطباعة لدى سان انطونيو لها معنى.

بالاتجاهات. كأنها مَلكة من ملكات بركنغز الغامضة. فأجتاز ردحة مؤثثة بالمقاعد فأصل الى باب ذي درفتين أحدسُ أنه باب المكتب المنشود. أدفع الباب فلا يهتزّ. ولذلك أجدني مرغماً على استخدام الأداة العجائبية التي لا تفارقني في مآثري المسجّلة.

وهذه المرّة لا تصادفُ الأداة مشقّة بل تُرّهة؛ مجرّدُ إجراء بسيط كما يقول مراقبو محطات السكّة الحديد والمحترفون. فأدخل الى الحجرة كأيسر ما يكون.

وسرعان ما ظننتُ أنني خُدعت. فطاولة المكتب ليست من الطراز الرئاسي الذي وصفه بينو بل من الطراز الانكليزي. انها قطعة أثاث من الأكاجو، بالغة الأناقة. نظرتُ الى الأسفل ولاحظت أن الموكيت كاملة. باختصار أحسب أنني أخطأتُ في اختيار الحجرة. فألقيت نظرة عاجلة على النافذة لتزول عنّي كل ريبة: لوح الزجاج المكسور. فعدت الى طاولة المكتب وانحنيت قليلاً. لأجد الموكيت في هذا الموضع جديدة ناصعة. لقد لُفّقت بقطعة جديدة فبدت ألوانها زاهية طلية.

أحسبُ أنّ أصحابنا الياميين قد شعروا بخطورة الموقف فسارعوا إلى إصلاح الأضرار. ولا بدّ أنهم نقلوا المكتب القديم خلال الأمسية. فتحت أدراجه فوجدتها فارغة. وهرعت الى خزانة ملفّات وُضعت بمحاذاة الحائط حيث يوضع قفل جديد! وسعدت أنه توفرت لي فرصة لتحقيق انتصار جديد لمفتاحي السحري الذي يُضاهي أدوات لويس السادس عشر. وإذا بملفّات مرقّمة ومصنّفة ومُرتبة متنوّعة الألوان.

سحبت أحـدها دون تدقيق. فقرأت على صفحته الأولى كتابة واضـحة الحروف:

.« Hklövitekaya Sproutnzatza intzgog»

ولا داعي هنـا للترجمة لأني أحسب أنكم لستم على قدرٍ من الغباء الذي يجعلكم غير قادرين على قراءة اللغة الألابانية الحديثة. وبـالفعـل فإنّ الملفّـات تتضمّن طلبـات الحصول على تأشيرات دخول. وقد أرفقت كل قسيمة بصورة لصاحبها ولزوجته وأولاده وأهله وأصـدقـائـه وللجابي المكلّف بأعمال التحصيل في ناحيته بالإضـافة إلى صور جيرانه المقرّبين. وقد دوّنت في القسيمة كافة المعلومـات عنـه: اسمه وعنوانه وعنّته وتاريخ ولادته ورقم جوازه ورخصة القيادة ورقم رخصة صيد السمك، إلخ. وقد ختمت كل القسائم بختم أحمر ضخم: «Tuladanik-Hu »، مما يعني، لنذكّر من جديـد إن نفعت الذكـرى (بحق السماء)، «مرفوض». ولذلك أحسبُ أنّ السيّاح نادرون في الابانيا.

أفتح ملفّات أخرى فأجد أنها جميعاً متشابهة. وحريٌّ بالذين يطلبـون تأشـيرة دخـول أن يطلبوا تأشيرة خروج كسباً للوقت. ومعظمهم من الألابانيين الذين يعيشون في المنفى وقد ألمّ بهم حنين العودة الى موطنهم ليموتوا فيه! إلاّ أن السلطات ترفض تلبية هذه الرغبة الأخيرة، ذلك أنّ الرصاص عزيزٌ وغالي الثمن في تلك البلاد المـذهلة ويحتفـظ به بالاولوية للسكان المقيمين. لا بد أن حملتي الاستطلاعية قد أضجرتكم ولكنكم تعلمون جيّداً مقدار تمعّن سان أنطونيو ودقته في انجاز مهامه. لذلك أدقق في الملفّات، الواحد تلو الآخر متمعناً بكلّ الصور وقارئاً كلّ المعلومات الواردة في القسائم.

وكنتُ منهمكاً في مطالعة الملفّ الثالث والأربعين حين جحظت عيناي وفَغَـر فمي واتسعت فُتحـة منخـري وتصلّبت عضـلات ظهـري وتشنّجت أعصـابي وانعقـدت شراييني وجمـدت أصابع قدميّ، واقشعـرّ بدني ووقف شعـرُ رأسي واختلجت أذنـاي، وتسـارعت خفقـات قلبي وتـلاحقت أنفاسي وجفّ حلقي واضطربت معدتي وتشـوّش وعيي. وما الذي يُحدثُ فيّ هذا المسلسل المتلاحق من الاضـطرابـات؟ أأقـول لكم؟ لا لن أفعل: لن تصدّقوا كلمة مما سأقول. وستزعمون أنني مفرطٌ في المبالغة، وأن كلامي لا يخلو من شبهة مغرضة وأن حرارتي جاوزت الأربعين. ولذلك أفضل أن أكتم عنكم اكتشافي.

ماذا؟ أتقولون إنني لا أفي بالوعد؟ صونوا ألسنتكم على الأقلّ إذا كنتم عاجزين عن صون نسائكم. فأنا الهمامُ طلّاع الثنايا الذي تعرفونه لا أقولُ أفٍّ ومَن يطلبني يجدني. لا أفي بالوعد، أنا! وبأية حال، ربّما كنتم على حقّ.

إذاً، حسنـاً سأخبركم، ولكن لو تنطّح منكم من يكذّب كلامي فسأجعلُ منه كومةً من معجونِ أسنان، هل اتفقنا؟ ما رأيته بين الملفّات، يا أبنائي، هو صورة بينو. اعترفوا أنكم صُعقتم للخبر، أليس كذلك؟ انه خبرٌ غير متوقع! أوتعلمون برفقة مَن؟ لا؟ يحدثُ لسانكم فقّاعةً لا؟ ليس لأنها مثيرة، لاحظوا جيّداً، ولكنّها مقبولة. إذاً بينـو يظهـر في الصورة برفقة فتاة سمراء فاتنة ترتدي بلوزة بيضـاء ولها جديلتان تتدلّيان حتّى أسفل ظهرها. وتُدعى راعية المفـاتن يابـاكسـا دانلافي. وهي سكرتيرة مُجازة من كلية الآلات الكاتبة في باريس.

أطوي ملفي وأدسّه في جيبي. وللتوّ أسمعُ صوتاً يهمسُ من ورائي:

ـ لو سمحت، ارفع يديك!

يتناهى الصوتُ عذباً وإن شابته نبرة أمر، فأستدير نحوه. وإذ بي قبالة رجلٍ شاحب السحنة قليل الشعر وقد سَرحه فوق صلعته اللامعة، وبيديه مسدّسان من العيار الثقيل. وصدّقوني عندما يحمل الرجلُ مسدّساً في كلِّ يد فهذا يعني أن الأمر ليس مجرّد دعابة وأنه لا يفعل ذلك ليُشفي ضحيته من نوبة فواق. يرتدي الرجلُ ردنين مدعوكين وسروالاً في حالةٍ مماثلة. من المؤكّد أنّ السيد كان نائماً في حجرةٍ مجاورة برغم أن هذه القنصلية ليست مجهّزة للسكن وتكاد تكون عاريةً من الكسوة (كما كان يقول أحد أخصّائيي الأمراض الجلدية لمريضٍ أصيب بحروق من الدرجة الثالثة). ولكنّ الرجلَ كان ينامُ يَقظاً (يا للمفارقة) ولا يغمضُ سوى عين واحدة. والآن تراني قُبالة هاتين العينين اللتين ترمقانني. وأيّ عينين، يا إخوتي! عيار ١١,٣٧! وعندما يلفظ أعيرته الآلية يحيلك الى ما يُشبهُ فيل نائم! ولو ان محدّثي أصيب بتشنج مفاجىء بسيط في عضلة سبّابته لجعل المؤرخين ينكبّون على سيرتي وستكونُ سيرة كاملة حتّى الفصل الأخير.

رفعت يديّ وقلت له:

ـ أرجو المعذرة لأنني أيقظتك.

ـ لا بأس. إن نومي خفيف جداً، أجاب الوافدُ ثم نادى:

ـ كلوترنا!

مرت ثوان قبل أن يُفتح الباب المفضي الى الردهة. ويدخل منه رجل لا يقلّ ارتفاعه عن ثلاثين متراً، وأيقنت عندها أن القنصلية مُكتظة بالعاملين.

للوافد الجديد شعر طويل يصل الى منتصف ظهره وأنف أفطس وحاجبان كثّان وشاربان من شأنهما أن يقتلا فرسانجيتوريكس(*) غيظاً وحسداً.

يصدر الرجل ذو المسدسين أمراً فيدنو العملاقُ مني ويتراءى لي ظلّه وهو أضخم وأشدّ هولاً من جبال الهملايا. لا أستطيع القول إنه لطيف، يا إخوتي. وجهه قناع، يا فتيان! جَبينه مَساحَة! ولمجرد أن يُطبقُ بقبضته على رأسي تطايرت علبة نخاعي شظايا وكسوراً.

إلّا أنـه لم يستخدم قبضته وإنما عاجلني بضربة ساعد على وجهي. وأسمّيها ضربة ساعد جوازاً لأنها في الحقيقة ضربة مرفق، فشعرت بزلزلةٍ كأنّ قاطرةً قد قبّلت ثغري. وإن تغاضينا عن السهو والخطأ فلا بدّ أنّ جثّتي قد قذفت الى الحجرة المجاورة،. فوجدت نفسي طريح الأرض. ومع ذلك، وبرغم عنف الصدمة، لم أفقد وعيي. وأحسستُ أن دماغي صارَ مثل عجلة تدور وتدور داخل جمجمتي ولا سبيل لايقافها أيها الرفاق.

خـلال هذه الغشـاوة المدوّخـة لمحت السيّد إفـرست(**) منحنياً فوقي. ويلمني كما يلمّ البشر الأسوياء جورياً قـديماً، ويُثبتني فـوق

(*) جنـرال وزعيم غولي (٧٢ ـ ٤٦ ق. م) تزعّم الغوليين في مواجهة قيصر. اشتهر بشاربيه الكثّين.

(**) نسبة الى أعلى قمّة في العالم بجبال هملايا، يبلغ ارتفـاعها ٨٨٤٨ م.

كنبة ويدسّ يديه في جيوبي. ويُجردني من مفتاحي السحري ومحفظتي ويهتدي الى مسدسي الأتوماتيكي. تنقشع عندها الغشاوة الدوّارة عن رأسي قليلاً. وأصبح بامكاني أن أرى بشيء من الوضوح. أخذ كينغ كونغ الألاباني يراقبني من وراء أجفانه الكلفاء. ولن يُقنعني أحد منكم بأنّ هذا الفتى لم يشبَّ على حليب «المون بلان»! فمن يرغب في احتواءِ جثته كاملةً، بنظرة، لن ينجوَ بالتأكيد من رعشةِ الباركنسون.

وفي الأثناء يعمد رفيقه الذي حرّر إحدى يديه من ثقلِ احدى غدّارتيه الى التدقيق في أوراقي. ليكتشف أنني شرطي، إلا أن اكتشافه هذا لا يبدّل شيئاً من حياد سحنته. فيدنو من المكتب ويرفع سمّاعة الهاتف ويُدير قرصه بضربات متتالية. يُسمعُ رنين الهاتف طويلاً في الطرف الآخر قبل أن ترفع السمّاعة. وفي آخر الأمر يجيب صوت رجلٍ يُغالبه النعاس:

ـ هالّوو! ما يعني بالألابانية: آلو.

وعندئذٍ يطلقُ الرجلُ ذو المسدسين رَشَقاً من العبارات بشأني.

وتعقب ذلك فترة صمت. ثمّ يُصدرُ الصوتُ البعيدُ أمراً. وتنتهي المخابرة. يُعطي رجلُ المسدّسين مُسدَّسه للهملايا الذي تجسّد رجلاً ويغادر. كلُّ هذا يشبه أن يكون كابوساً. فحتى الآن لم يخاطبني الرجلان بكلمةٍ واحدة. فأقول في سّري لا بدّ أن أحاول شيئاً للتفلّتِ من هذه الورطة وسرعان ما أقنع نفسي أنّ وجود الرجل ـ الجبل يجعل الأمر مستحيلاً. أبسط حركة، لا بل أبسط رعشة تبدر من شخصي الكريم، ستجعل مصيري الشتات، أعني بعثرة كياني في الأرجاء.

يعودُ رفيقه وبيده حقنة. آهِ كم أبغض هذا! أبغض الحقن من يدِ طبيب العائلة فكيف تكون حالي إذا لعب هذا الرجل المقيت دور الطبيب، أحسبُ أن فرائصي ترتعد.

وأعلم أن السائل الذي تحتويه الحقنة ليس إكسير الفيتامينات أو محلول الكلسيوم. يريدون استعجال نقلي الى الملأ الأعلى برفقٍ، ودون ضوضـاء. وبعد ذلك يتكرّم هذان السيّدان بإيداع لحمي الميت في برميل نفايات لائق. أمّا أنا، لو كان لي أن أختار، فأفضل ألف مرّة طعمَ الرصـاص الذي يليقُ برجـولتي. ولكن كينغ كونغ القنصلية يُعاندُ رغبتي الأخيرة ويُطبقُ بقائمته الأمامية الهائلة على خناقي ويُثبتني الى مسندِ الكنبة.

أرى الألاباني الآخر منكباً على حالتي وبيده الحقنة الشمطاء. انـه يوم أجلك يا سان أ. وداعـاً للفتيـاتِ والأحـاديث الملغّـزة بالتلميحات. لقد حان وقت الحساب، يا بني. فأغمض عينيّ. إني حزين. أن أقضي في زهرةِ العمر وما زال العالم زاخراً بهذا العدد من القناني والفتيات؛ يا للإحباط!

ولكنْ في آخـر المـطاف، ينبغي أن نفسـح في المجـال للأجيال الصاعدة. إذ ينبغي أن يخلي السلفُ الصدارة للخلف. أليس كذلك؟

أشعر بالإبرة تنغرز في لحمي فتنتابني قشعريرة. وفي اللحظة تُفـرقـعُ رَشقـةٌ لطيفة. أربع رصاصات. بان ـ بان ـ بان ـ بان! الحسابُ دقيق، أليس بلى؟ بلى؟ حسناً! يُردى طاعمُ الحقنةِ ويتهالك على رُكبتي. ويدعُ الحقنة مغروزةً كالوتدِ في لحم ذراعي. ولحسن

الحـظ لا يزالُ السـائـلُ في داخلهـا. وماذا عن كينغ كونغ، أيّها السيّدات والسادة؟

أقول للعلم والخبر، إنّ كينغ كونغ أصبحَ هو أيضاً خارج اللعبة. لقد مُنيَتْ سحنته الهائلة بثقبين ومَهْمَا كان اعتزازه بغلظة رأسه فقد طحنت رصاصات بيرو نُخاع مولّده. ذلك أنكم علمتم بلا ريب أنّ البدين هو الذي فتح باب جهنم. كأنّه أحد آلهة الأولب وسيفُه يُطلق لهباً.

- يبدو أنني وصلتُ في اللحظة المناسبة، مرّةً أخرى، أليس كذلك؟

نهضت لأعاينَ الضحيتين. رأسُ عجلٍ بخلٍّ العنب، تمثال جان دارك، مومياء رمسيس الثاني، وحتّى فقرة من معجم الأكاديمية الفرنسية قد تفوقهما حياةً وحيوية.

- هيّا بنا! قال بيرو. سيشتدُّ أجيج الأسلحة. كنتُ أحسبُ أنّك ستسبّب حريقاً إشكالياً، لقد نجونا، أليس كذلك؟

وتدحرج نحو المدخل الذي أصبح على هذا النحو، مَخرجاً.

أنتزعُ الحقنة من لحمي وأستردّ مسدسي ومحفظتي ولحقت به. لقد بدأت الحركة تدبّ في المبنى. وقد لا نتمكن من الفرار قبل أن يهرع السكان من جحورهم.

نهرعُ بلا وعي الى السيّارة. وانطلاقة مكّوكٍ فضائي. ثمّ سباق في شوارع باريس.

- هلاّ ذهبنا إلى مطعم «ليب»! يتوسّل البدين. أتحرّق لمذاق الشوكروت!

الفصل الثامن

طبقان مزدوجان! وتُعينني الأنوار الساطعة على استعادة قواي. يكرع البدين كوباً عملاقاً من البيرة ويَطْلُب واحداً آخر.

ـ إنه مفيدٌ للمثانة، يقول مفسّراً. فالمثانة مثل البقية: تحتاج من حين لآخر لعملية غسل!

كلُّه غبطة، صاحبي الهائل. ولكن فجأةً كم يبدو لي ضامراً إذ تتراءى أمام عينيّ صورة الغوريلاّ الالاباني.

كأنّه البوذا الصغير، بمعنى ما.

ـ أشكرُ لك مبادرتك الجميلة، قلتُ له وقد غرزت شوكتي في اصبع نقانق غليظ.

ـ انتظرتك طويلاً فساورني القلق، قال البدين شارحاً. أتعتقد أن الحرب ستقع بيننا وبين الالبانيا؟

ـ آمل أن لا تقع.

ـ إذا حدثَ أن نشب نزاع دولي بسبب فعلتي هذه فسأشعر بتبكيت الضمير طيلة عمري، قال صاحبنا متشكياً.

ـ لا تقلق، سيتكتمون حول الأمر. فمن مصلحة مجانين

القنصلية أن لا تثار الحادثة في العلن. ويبدو واضحاً إلى الآن أنّهم يحرصون على تجنّب أي دعاية.

وننصرفُ الى التهام أطباق الشوكروت صامتين، فيما تستغرقني دعةٌ ولا أعذب.

إنه لأمرٌ ممتع ان يتلذّذ المرء بطبق شوكروت لدى «ليب» بعد نجاته العجائبية من الموت. وبعد العشاء نقلت الرجل البدين في سيّارتي الى داره وعدت أدراجي الى المكتب لأطلع العجوز على آخر المستجدات. يبدو لي أنه هو أيضاً يخشى الحريق الاشكالي، كما يقول بيرو.

ـ كنت تستطيع أن تتلافى الزيارة الى مكاتب القنصلية، قال مُحتجاً.

ـ إلا أنها أتاحت لي أن أعثر على هذه الصورة، أيّها الرئيس.

ثم أمعن النظر في صورة الفتاة ذات الجديلتين وفوجىء مثلي عندما شاهد بينو برفقتها.

ـ يجب أن نحصل على بعض المعلومات حول هذه الفتاة، فعليك ببينو.

ـ سأفعل. ولكن هلّا أصدرت أوامرك للزملاء الذين سيتولون التحقيق بأن يغضّوا الطرف قليلاً؟

ـ بالطبع، يغمغم الحيزبون. ولكن تصّرفك هذا يضعني في موقف حرج يا سان أنطونيو، إنّك فقدت بعضاً من حسنِ الدراية!

ـ النتائج وحدها هي التي تحسم الأمر! أردّ الكيل كيلين.

ـ بالضبط، ولكنّني أخشى أن تكون النتائج غير مقنعة!

ـ سوف نرى! قلت مواجهاً التحدّي.

ـ فليتكلم بسرعة! قال الرئيس حانقاً.

ـ أتأذن لي بالمغادرة؟

ـ أرجـوك!

ورحت أسرع خطواتي في اتجاه الباب حين دوّى صوت الحيزبون:

ـ سان أنطونيو!

*

* *

الشرطي الذي يحرسُ باب بينو يغفو كما يغفو شرطي في نوبة حراسة.

فأربّت على كتفه ففتح عيناً يُعكّرها السُّبات.

ـ ممنوع! قال متثائباً.

هاكمُ الشرطيّ الذي يحسب أنّه يحرس خندقَ معركة فردان. فألصقت بطاقتي بعينيه حيث تسارعُ إلى تصويب جلسته مما جعل كرسيّه على وشك السقوط. وأدلف شامخ الرأس الى وكر بينوش. أجدُ المسنَّ هاجعاً في قفصِ الجصّ الذي يؤويه. طرقت على أحد جانبيه فدعاني الى الدخول.

أجبتـه أنني لا أملك المفتـاح فأكـد لي أنـه سينـزل بنفسـه لاستقبالي. وفي آخر الأمر زالت غشاوة النوم عن رشده ورآني.

ـ أنتَ مجدّداً! قال معاتباً.

ـ مجدّداً أنا.

ـ في الوقت المناسب، أيزعجك أن تحكّ لي محيط سُرّتي؟ يكاد الأكلان يقتلني.

ـ في المرّة القادمة سأحضر لك مبرشة أجبان، قلت بنبرةٍ جادّة، أو إن شئت سأحضر لك مِلجاماً فقد يكون أكثر فعالية.

بعد أن حككتُ الموضع المشارَ اليه أطلعته على صورة الآنسة ذات الجدائل.

ـ أتعرف هذه الأمازونية؟

ـ طبعاً، لقد كانت سكرتيرتي في مكتب التحريّات الخاصّة الذي كنتُ أديـره. تُدعى يابـاكسـا دانلاڤي. إنها فتاة فاتنة لا تعوزها الكفاءة أو الصدق كما ترى جيّداً في الصورة انها ذات مظهر مُلفِتْ.

ـ أهي ألابانية؟

ـ ليس في حدود علمي، قال بينو مندهشاً. فهي تتكلّم الفرنسيّة بطلاقة الفرنسيين!

ـ هذا لا يعني شيئاً، فلا بدّ أنّ والديها يُجيدان الالابانية، أين تقيم هذه الفتاة الجميلة؟

ـ في شارع سان مارتان، الرقم ٤٤.

ـ سأذهب لزيارتها صباحَ الغد. وأعتقد أنني أدرك الآن السبب الذي يدفع هؤلاء الالابانيين الى محاولة قتلك.

ـ وما هو؟ يقولُ بينوش في صيغة سؤالٍ يكاد يشبه فصاحة بيرو.

ـ عندما ذهبت اليهم في زيّ زجّاج، تمكّن السكرتير الذي يمتلك

ذاكـرةٌ بصريّة متمرّسة من التعرّف الى وجهك، وهو، لعمري، وجه مميّز بالفعل. فسارع الى التدقيق في صورة الملفّ. وبما أنّه ليس بالرجل الأحمق فلا بدّ انه فكّر على النحو التالي: «إن هذا الرجل الذي يُحاول خداعنا يقف في الصورة الى جانب احدى مواطناتنا. ويبدو في الصورة أنّهما صديقان. فهل يكونُ الرجلُ الابانياً؟ وإذا كان الابانياً فلا بد انه فهم ما كنت أقوله عبر الهاتف. ولذلك ينبغي اسكاته مهما كلّف الأمر».

ـ وهل كان حديثه على هذا القدر من الأهمية؟

ـ لا اجدُ تفسيراً عقلانيةً آخر، يا ابي الطيّب. حسناً، أدعك الآن تكمل ليلتك الهانئة. وارجو أن تلتحم عظامُكَ ثانيةً يا بينوش.

ـ مهلاً، هلّا حككتَ لي باطن قدميّ؟

ـ قليلاً، أقولُ بصراحة، فأنا لا احملُ قفّازاً.

وهكذا غادرته وهو عرضة لطفحِ الأكلان.

*

* *

وصلت الى منزلي وتوجهت مباشرةً نحو الثلاّجة حيث كرعت كوباً كبيراً من الحليب المثلّج. فالحليب قبل النوم، ليلاً خير غذاء (كما كان يقول الرئيس هيريو). ثم أصعد الى غرفتي على رؤوس أصابع قدميّ. الغطاء القطني المطبّع، سرير الخشب المشمّع، وقطع الأثاث القديم الملمّعة بعناية فيليس وهذه هي زمرة الأصدقاء المرحّبين بعودتي فتطمئن نفسي. اندسُّ بين شرشفين نظيفين وأدلفُ الى

النخيرِ الوادعِ مصحوباً بأحلام الزرقة والمنظرُ الأخّاذ المطلّ على العدم.

*
* *

أستيقظ في صبيحة اليوم التالي وأجدُ الطقسَ رائعاً. الشمس متوقدة، وصغار العصافير تواصل تدريبها لامتحانات الدخولِ الى سكالا ميلانو، والسماء الزرقاء تشبه بيرق «أبناء مريم». وفجأةً أتخذ قراراً بطولياً. قراراً لم أتخذ مثيلاً له منْ قبل: وهو أن أمكثَ في المنزل.

نعَمْ يا إخوتي، واللبيبُ من الإشارةِ يفهم، صاحبكم سان أنطونيو، المقدام الذي يُبعثر الأحناك محطّمة ويكشف الألغاز الملغّزة، يُبدي فجأةً رغبته في أن يلعب دور الرجل القُعْدة. ويشعر بالحاجةِ الى هدنةِ الوقت الميت ببعد مُسلسل التورّط في أشدّ القضايا خطورة. وأقول مخاطباً نفسي لا يكفي أن تؤخذ الدنيا غلاباً. فالحاجة ملحّة أحياناً لدعةِ التبصّر كما هي الحاجة أحياناً أخرى للتصرف بسرعة. فيليس تصنعُ كوباً من الكاكاو المنزلي في المطبخ. ورائحة الخبز المحمّص تعبق في الأرجاء. فأمسكُ بكتفي والدتي الطيّبة وأقبّلها قبلة الصباح الأولى. فتستدير مُبتهجةً وإذ تجدني في بيجامتي تتمتم بصوتٍ لا يجرؤ على التمادي في رجائه:

ـ لست على عجلةٍ من أمرك هذا الصباح؟

ـ لا، يا أميمتي. اليوم إجازة. أريد أن أعتني بالحديقة.

إنها فرحة فيليس الكبرى. وتمكث مشدوهة لفرطِ تأثّرها،

أميمتي المحبـوبـة، فينتهـزُ الكـاكـاو غفلتهـا عنه ليدلق فورانه المفاجىء. لكنَّ الوالدة ليست من طراز النساء اللائي يربكهنّ تمردُ وعاء الكاكاو. فتصدُّ المحاولة ببرم مفتاح الغاز بحركةٍ مباغتة.

ـ أحقاً يا بني ستمضي النهار هنا؟

ـ إنه وعد يا أميمتي.

ـ إذاً سأحضّر لك فتائل من سمك السومون بالنبيذ الأبيض المعطّر والكلى المقليّة!

ـ بعد ذلك سأبدو متنكّراً بمظهر بيروربيه، يا أميمتي، بطعامك المتقن الدسم!

وها وجهُها ينضحُ غبطةً، أميمتي العزيزة.

أتنكّـر في زيٍّ بستاني وأقصد الحديقة أشذّب خضرتها. وهنا بزاقة تشهرُ قرنيها، وهناك نحلة تلعبُ لعبة المهتزّ. إنه صباح جميل. أترون، يا زمرة المحزومين، اننا هجرنا الطبيعة زوراً. نحيا جميعنا فوق صاروخ أطلس ونزبدُ ونرغي لأنّه لا ينطلقُ بالسرعة الكافية. ينبغي للمرءِ أن يصرفَ مزيداً من الوقت للاعتناء بحديقته ولمراقبة شُغـلِ النحل. وإلى جهنّم قنصلية الابانيا وطغمتها الغريبة حيّة ترزقُ أو ميتة.

أسأل في سّري كيف أحوال هؤلاء السادة. ولكنَّ سؤالي ليس ملحّاً ولا أبالي بالإجابة الشافية. حتّى أني لا أكلّف نفسي مشقّة الاتصال بالعجوز لسؤاله عن المستجدّات بهذا الشأن. أكرّر لكم أن يومي هذا مكرّس للاسترخاء والراحة.

أنتـزعُ بعض الأعشـاب البريّة ريثما أتمرّسُ بالعمل اليدوي.

ولكن لا مأخذ لي على أشواك النجيل، يا فتيان. ففي آخر الأمر ليست سوى نبتة تضاهي سواها. إنها مجرّد وجهة نظر (وأي نظرٍ أحسر!) أن تصنّف النباتات والحيوانات بين رديء وجيّد. فلماذا لا تكون الأفعى بمنزلة الكلب؟ ولماذا لا يكونُ القرّاص بمنزلةِ الكرنب، أسأل؟

تصلُ السيّدة سوغرونو مدبّرة المنزل، بسترتها السوداء وسلّة مؤنها. إنها عجوز صغيرة يُشبه أن يكون رأسها تفاحَةً متعفّنة. وصوتها أشبه بدوّاسةٍ صدئة. عبر النافذة يتناهى الى سمعي صوت ثرثرتها، أميمتي والسيّدة سوغرونو وهذه الأخيرة تجيدُ الحديث من طراز: «لم تمهلني الحياة هدنةً». المآسي في كاملِ حلّتها: مؤسسات الرعاية الاجتماعية، الزوج المدمن على الكحول، الابن الذي قُتلَ في الحرب، والابنةُ التي هجرت البيت برفقة شقيّ. فما إن يهتدي الباري الى آجرّةٍ جديدة حتى يرمي بها على رأس الأم سوغرونو. فواتير الضرائب المستحقّة، الحجوزات العقارية، قطع التيارِ الكهربائي، أعطال الفرن، المواقد المنهارة، نصيبها من الدنيا، هذه المرأة المسكينة. ومع ذلك، يجب أن نقرّ أن المواقد لا تنهار بسهولة. والحالُ أن مدخنة التعسة سوغرونو تنهار كأنها جرف قطبي ولا تخطىءُ حجارتها درّاجة الزوج المركونة بدِعةٍ عند الرصيف. الطامة الكبرى، فعلاً! والأشدُّ قسوةً، كما تروي الحيزبون، أن تعتاد على الأمر. وبعد ذلك تصبح الأمور مجرّد عادة. فما إن تمضي ثمانٍ وأربعون ساعة دون أن تعترضها مصيبة حتّى تتوجس شراً وتقيم على انتظار الأسوأ. وعندئذٍ يستجيب القدر لتوجسها فيسحقُ هرّها أو يمنّ عليها بورم ليفي من طراز ١٥ الخاص بفرنسا. وتؤكّد فيليس أنّ الباري تعالى سيُجلس الأم

سوغرونو الى يمينه فور انتقالها لتدبير دارة السماء. أمّا أنا فأقولُ إن قناعة أمّي ليست يقيناً. وأراهن مَن يشاء أن خطأً ما سيجعل أحد الملائكة يُرسلها مباشرةً الى حاضرة إبليس.

إنهـا تروي قصّة الكناري الذي نفق خلال الليل. إلّا أنها لا تبكي، فقد استنفد الزمن دموعها فجفّت. وبرغم ذلك كان الكناري رفيق وحـدتهـا، وهـو الوحيـد في العالم بأسره الذي يُجيدُ عزف المارسيّاز(*) صفيراً. ويبدو أن الحماسة كانت تتملكه فور سماعه صوت الجنرال(**) عبر المذياع. وما جرى هو التالي: لقد وجدته في مؤخّر قفصه، جثة هامدة فوق حبوب الذرة البيضاء. قضيّة محزنة، أليس كذلك؟ تقطر عينا فيليس دمعةً. فترتسمُ معالم البهجة على وجه الأم سوغرونو، فهي تعشق أن يرثي الآخرون لحالها: إذ تجدُ في تعاطفهم عوضَ ما تعانيه جزاءً.

ورغبـةً في مؤاسـاتهـا تمـلي عليها فيليس وصفة فتائل سمك السـومون بالنبيذ الأبيض المعطّر. وتبدي الأمّ سوغرونو اهتماماً بالغـاً فهي لا تعـرف من أنواع الأطعمة إلّا البطاطا والمعكرونة. وتطلب من فيليس أن تدوّن لها التعليمات على قصاصة ورق لأنها مهتمّة بهذا النوع من الوصفات. ويبدو أنّها جمعت منها الى الآن ما يملأ دفتراً من الحجم الكبير. بدءاً بقُحاطة ذنب الكركند انتهاء بفخذ اليحمور المشوي وسلطة هاواي وحساء الهليون. وتؤكد أن وجود مثل هذا الدفتر ضروري تحسّباً لضيف طارىء أو وليمة.

(*) النشيد الوطني الفرنسي.

(**) شارل ديغـول.

سوى أن الضيـوف الذين تستقبلهم هم مأمور الضرائب وجابي الغاز وجمهرة أخرى من الموظفين الذين تؤدّي زياراتهم في الأغلب الى صدّ شهيتك للطعام.

ولكن لا بأس: مع ذلك لا ينـال منها القنوط. إنها في سنّ العناد.

أغمضُ عينيّ مُستسلمـاً لدِعـةِ شمس الربيع. فمن حديقتنا تتضـوّع روائــح الأرض الرطبــة والشجيرات المزهرة. وها جرس الهاتف يرنّ. فتوقف الامرأتان حديثهما. ويكفّ الجرس عن الرنين. ثم أرى أمي واقفة في الباب وقد ارتسمت على وجهها ملامح توجّس غامض.

ـ المخابرة لك يا أنطوان: إنه السيد بيروربيه.

ـ قولي له أن يـدعني وشـأني! أجبتُ قـائـلاً. اختلقي أي ذريعة: قولي إنني مريض أو إنني منهمك بنقاشٍ حادّ مع وزير الداخلية أو وزير الخارجيّة إن شئت، لا فرق.

فتبدو منها زفرة ضيق. الكذب ليس أفضل ما تُجيده أمّي. فهي تأنف من استخـدام هذه الوسـائـل حتى لو كان الغـرض منها استبقـائي في المنـزل طيلة يوم كامـل. ومـع ذلك تتوارى. وتعود الأشياء الى مسالك الدِّعةِ الصباحية. نحلتي غادرت الى الحديقة المجـاورة. وألاحـظ للمنـاسبة أن الجيران قد استبدلوا الخادمة بأخرى. الأولى التي كانت تعمل في خدمتهم (وخدمتي) كانت فتاة قصيرة القامة سمراء وسوقيّة المعشر لا تتوانى عن سرقة ما هو ثمين وخفيف.

استبدلوا تلك الخادمة القادرة على كلّ شيء (كلّ شيء بالمطلق)،

ببقرةٍ بدينة صُنع مقاطعة بروتانية قد يبلغ وزنها طنّاً وتشبه ب. ب. (أقصد برت بيروربيه). وأراها الآن منهمكة بنفض سجّادة فارسيّة مزيّفة، نسجت بواسطة آلات حديثة يديرها متقاعدو شركة الغاز. وتحدثُ في غمرة انهماكها قدراً من العصفِ بحيث تثير الرعبَ في روع جاراتها القريبات اللواتي يحسبن أنه أوان العاصفة فيغلقن مصاريعهن على عجل.

تُرى لماذا يتصل بي ذلك الهائلُ؟ لقد زرع وسواساً خفيّفا في روعي. وتساورني بعض مشاعر الندم. تبدأ هذه المشاعر عادة بانشغال الفكر. في البداية لا تكونُ إلاّ مجرّد وخز خفيف، ثمّ لا تلبث أن تشتدّ حتى يضيقَ بها صدرك.

تدفعني قوّة قاهرة الى عتبة المنزل، حيث أجد السيّدة سوغرونو وفيليس منهمكتين بمسح أرضية الردهة. السيّدة ذات الكناري الميت تغسل البلاط بالفرشاة، فيما تعمد أمي الى مسح المياه بالمسحة.

وخلال انهماكها بالعمل تحاول السيّدة التعسة أن تلخّص حالة التهاب الدوالي التي أصابت زوجها. يبدو عليها الحصر.

ـ قولي لي يا أميمة، أقولُ مقاطعاً، ماذا أخبرك الرجل البدين؟

كانت تتوقع سؤالي، فيليس النبيهة التي تعرف جيّداً كم أعاني من تأنيب الضمير. فهي تعرف جيّداً كلّ خصال صغيرها سان أنطونيو.

ـ يبدو أن المدعو...

تبدي بعض التردّد فتتورّد وجنتاها ثمّ تتابع:

ـ ... ان المدعو موربيون حاول الاتصال بك في المكتب. ويبدو أنّ الأمر ملحّ.

دوّى في مؤخّــر عُلبة ضميري ما يشبه جلبة كيسٍ فزرته يدُ غاضبة بعد نفخه. فتوجهت بحركةٍ آلية نحو الدرج.

ـ أيعني هذا أن لا ضرورة لفتائل السمك؟ تسأل أمي.

لا اقوى على الردّ فأهزّ برأسي بائساً وأصعدُ لارتداء ملابسي.

*

* *

وجـدت حاجبـة المبنى حيث يُقيم موربيـون منهمكـة بتلميع شمعدان نحاسي لحظة انعكاسِ صورتي الشبحية على زجاج حجرتها.

ـ السيد موبوي، بادرتها القول...

ـ الطبقة السادسة لجهة اليسار!

ـ أعلم، لكنّه غير موجود!

ـ وما شأني أنا؟ تسأل السيّدة الكريمة.

أدقق في سؤالها وأقلّبه على أكثر من وجه وأخلصُ الى الإقرار بأنّه لا يتضمّن اي ردّ إيجابي.

ـ هل رأيته مغادراً؟

ـ لا. ولكني تغيّبت لمدة ساعتين.

ـ شكراً...

وأهمُّ بالمغادرة حين تقع عيناي بمحض المصادفة على منضدةٍ

خشبيّة صُفت عليها رسائل المقيمين في المبنى. وألمح بطاقة بريديّة وقد دوّن عليها بأحرف مائلة وغير منتظمة اسم موربيون وعنوانه.

فأستولي على البطاقة لأتفحّصها عن كثب.

ـ إفعل ما يحلو لك! تصرخُ الحاجبة باستياء.

فأقبل نصيحتها وأقرأ:

«حضرة الأستاذ العزيز،

آمل أن تتماثل للشفاء في وقتٍ قريب لتعود الينا في المدرسة. لقد عيّنوا أستاذةً لاعطاء الدروس في فترة غيابك. إنها لا تُضاهيك في شيء. الآخرون يضمّون الى أمنياتي أمنياتهم الصادقة بالشفاء العاجل.

من قِبل بول وريري وألبير ومن قبلي أنا، فيكتور ليكوييه».

على البطاقة صورة قطّة أنقورية بقرب جهاز هاتفي.

ـ يا لبرود أعصابك! تصرخ الحارسة المهذارة. وماذا لو استدعيت شرطياً ليلقنك أصولَ اللياقة؟

ـ عندئذٍ تقترفين خطأً لا يُغتفر، يا سيّدتي العزيزة، قلت جازماً. إذ لا يبدو لي أن شرطياً ما يستطيع أن يُلقن أحداً مثل هذه الدروس الدقيقة، ثم عاجلتها ببطاقتي فهدأت على الفور.

ـ حسناً، أما كنت تستطيع أن تخبرني من قبل؟ ما الأمر؟

ـ في أي ساعة يصل البريد؟

ـ عند الثامنة...

ـ حتّى لو تغيّبت يستطيع سكان العمارة أن يأخذوا رسائلهم

عبر هذا الشبّاك، أليس كذلك؟

- بلى.

- والسيّد موبوي لم يأخذ بريده حين غادر.

- لا.

- أمر غريب، أليس كذلك؟

- بلى.

- هل أنت واثقة من أنّكِ لم تشاهديه؟

- لا.

- ربّما من المُستحسن أن أصعد ثانية؟

- أجل.

- إن سمعه ثقيل بعض الشيء؟

- أجل.

وإذ أشعر بأنني لستُ بارعاً في لعبة كرة الطاولة هذه تركت السيدة لأصعد الطبقات الستّ مرّة ثانية. وأقرع الجرس مجدّداً حيث لاحظت أن رنينه المسموع في هذا المبنى البورجوازي يُشبه قهقهةً مفاجئة أثناء القدّاس في كنيسة.

ولم أسمع جواباً سوى مواء القطط. وفي مثل هذه الحال، ليس لي إلّا أن ألجأ لعجائب مفتاحي السحري «سمسم!»، المقدام، أليس كذلك يا جيراني؟ وسرعان ما يتضح أن قفل باب موربيون متهالكٌ مثله. ولا يحتاج لأكثر من شوكة طعام كي يبتلع لسانه... ولم يستغرقني أطول ممّا يستغرقُ الدبّاغ في تحويل أرنب الى فروة فيزون. فيُفتح الباب وتهرع القطط موّاءةً لتندسّ بين ساقيّ. أتفقّد

انحناء الشقة مدفوعاً بتوجّس غريب. رائحة العفن تزكم الأنوف في شقة موربيون. ومن شأن قططه أن تكون استثماراً جيّداً لشركة إيرويك للسماد. ولكنّ الغريب أني لم أعثر في الشقة على ما يبرّر مخاوفي. الشقّة خالية. ولا أثر لموربيون فيها كما قد لا تجد أثراً لمارقٍ في جامــع. تفحّصت كلّ زاويــة وركن، تحت السرير، داخل الخزائن وفي أدراج الكومودينة، لكن عبثاً.

وإذ عاودني الارتياح قصدت النافذة المواجهة للقنصلية فتبدو واجهاتها محايدة كأنها قنصلية سويسرا. إلّا أنّ شيئاً ما، لا أعرف ما هو بالضبط، يُقلقني ويُضاعف حيرتي. فأقولُ مخاطباً نفسي دون مُراعاة أصول اللياقة: «ما الأمر يا سان أنطونيو؟ ما سبب هذا الضيق الغامض الذي ينتابك؟».

لم أجب عن سؤالي. تبدو الشقة غير مرتبة وفي حالة فوضى، إلّا أنها فوضى موربيون المعتادة. وبرغم أنّ القطط ينبغي أن تضفي مناخاً من الطمأنينة إلّا أنها تُشيعُ في الأرجاء مسحةً من الكآبة. لنرَ قليلاً: هذا الصباح اتصل موبوي بالمكتب وأراد أن يحدّثني بأمور ملحّة وعاجلة. فما هي هذه الأمور؟

ثم غادر المبنى وقد نسيَ تماماً وهو الرجل المنظّم والدقيق، أن يأخذ رسائله من حجرةِ الحاجبة.

إنه أمر يُثير الريبة.

أوه، بالطبــع، إن الحمقى من أمثالكم لا تستوقفهم مثل هذه التفاصيل الدقيقة، فبامكان أحدكم أن يقتعد فرناً متوقّداً دون أن يشعــر بلسـع ناره. إلّا أن الكوميسير المحبوب يعمل تحت شعار التـأني والدقة، فهو يمتلك حساسية مُقتحم الخزناتِ الفولاذية.

فدقائق الأمور هي صُنعته ومراده. وبما أنه بمثلِ حساسية الفيلم الفوتوغرافي، يقف هنا حائراً، يسألُ نفسه عمّا يجري وراءَ المظاهر ويبحث عن السبب.

أتخذ قراراً بالعودة الى المكتبْ لمقابلة بيرو. فماذا لو أن موربيون العجوز قد زوّده ببعض التفسيرات؟

وفي طريقي الى البـاب بلغت فطنتي التي يُضرب بهـا المثل(*) ذروتها. إذ اكتشف فجأة مصدر الاضطراب في أجواء الشقّة. أوه، إنـه تفصيل دقيق يا أبنائي: لقد انتزع رقّاص الساعة ووضعَ، بغباء ظاهر، بقربها. وبدت العقاربُ المتوقفة تشيرُ الى العاشرة إلاّ ثلثاً. فألقي نظرة عاجلة الى ساعتي وأجد أنها قاربت الظهر.

لا أبـالي كثـيراً بتفسـيركم لمثل هذا الأمر، ولكني أعلمُ، خُبرةً ودرايةً، أنّه العجب العجاب، أليس كذلك؟

(*) قل إنها عِدْل ستة براميل وصنبور. (س. أ).

الفصل التاسع

ـ لقد عاد بيرو الى منزله، ولديه ضيوف على الغداء. هكذا قال لي المناوب.

وبـزفـرةٍ عميقة مثل ريح الميسترال العاصفة، قررت الذهاب لزيارة آل بيروربيه. فوصلت الى عمارتهم في الوقت الذي يهرع فيه عجـوز هابطاً السلّم وقد غطّت الدماء وجهه، وتتبعه امرأة عجوز مولولة، ثمّ امرأة أربعينية منتحبة يتبعها صبيّ مقهقه. فاعترضت طريق ذلك المسخ الصغير.

ـ ماذا يجري، أيّها الوجه المغتبط المقهقه؟ سألتُ قلقاً.

ـ إنه نمر السيّد بيروربيه لقد عضّ جدّي، أجاب وهو يحاول الافلات من قبضتي.

حالة من الذعر تسودُ شقّة آل بيرو. وأجد البدين منهمكاً بعراكه المستميت مع القطّ البنغالي الذي أحضره من تورينو.

ـ كليمنصو! عُد الى حجرتك بسرعة! يُبرطمُ المروّض.

يقفـز النمـرُ الى صدري ويغـرقني بدموعه وهو يَلْعنُ صاحبه الرهيب الذي يُفسدُ بوَساوس جنونه دعة الحياة الزوجية والأسريّة.

وتفسير ذلك: أنّهم كانوا على وشك شراء منزلٍ ريفي صغير على أن تُسدّد أقساطه على المدى البعيد. وجاء «أصحاب الشأن» لتوقيع عقد البيع، إلّا أن المالك العجوز أصيب بنوبة سُعال. والحال أن كليمنصو، نمر آل بيروربيه، يستقبح السعال. فوثب على البائع وجعله فان غوغ الثاني بعد أن التهم أذنه اليمنى. فلم تتمّ الصفقة.

أفلح بيرو أخيراً في ادخال حيوانه المفترس ذي الخطوط الى حجرته. ولكنّ صنيعه هذا لا يُنهي الأزمة، ذلك أن كلبه السان برنار كان هناك وكذلك الخادمة. ولم يلبث أن علت أصداء عراك صاخب. فهرعت الخادمة، وهي شقراء شاحبة مُشعِرة، وقد تدلّت من عنقها نظارة ندّاف القطن وتشبثت برسن السان البرنار الذي ارتجلته من سلسلة لسيفون المرحاض ومع ذلك لا تُفلح (ولن تفلح) في لجم الكلب.

يتبادل النمر والكلب نهش الأنياب في كلّ المواضع. وتُضطر برت، سعياً وراء النجاة، الى الوقوف فوق طاولة. إلّا أن قطعة الأثاث التاعسة الحظ قد صمّمت لحمل إناءٍ من الأوبالين ليس أكثر فتنهار تحت الثقل. تتشبّث برت بالثريّا، ولم تصمد الثريّا البائسة تحت الثقل هي أيضاً. فتستسلم لبرت حاذيةً بذلك حذو كلّ صبيان الحوانيت في الجوار. ويحدثُ ارتطامها بالأرض انفجاراً من قطع الزجاج المحطم. ولا تلبث أن تكسو الأرضيّة ببحيرة من البريق. وحين انتزع ساق الثريّا من السقف انتزع معه مترين مربّعين من مساحة السقف. ولسوء الحظ كان السقف يُستخدم على وجهين، فهو في الوقت نفسه يُشكّل أرضيّة الجار الذي يقطن الطبقة العليا.

وعبر الفتحة المستحدثة في السقف شوهد رجلٌ عجوز يضبط سماعة أذنه الكهربائية على موجةِ حلبة الثيرانِ الهائجة في الأسفل.

ـ مساء الخير، يا سيّد لوساج! يصرخ بيرو قائلاً محاولاً فضّ اشتباك المتعاركين. أعذر لنا فوضانا، ذلك أن هاتين الدّابتين اللعينتين تسبّبان لنا الويلات.

ـ لا، شكراً، لقد تناولتُ طعَام الغداء للتوّ! يُجيبُ الأصمّ، الذي لم يسمع كلمةً واحدة.

وفي آخـر الأمـر تفلتُ الخادمة السلسلة وتهرع لنجدة برت، وتنهمك بانتزاع قطع الزجاج التي انغرزت في لحمها بواسطة ملقطٍ يُستخدم لقطع السكّر. إنّها تبكي، الخادمة المغناج. ولا تفهم كيف يمكن أن تحلّ بهم مثل هذه الويلات وهي تحمل في رقبتها ميدالية سيّدة لورد التي باركها المونسنيور بيتاوتشونيك بالذات. إن الدنيا لتـزخـر حقاً بالنكبات التي تعصى على الفهم! بيرو، في حدّ ذاته، إعصار. ويؤكد أنه ربّ المنزل وأنه سيغضب. وردّاً على تشوّفه هذا يثب كلب السان برنار وينتزعُ قطعةً من رِجل بنطاله، فيما ينتزعُ النمر كمَّ سترته. إلّا أن بيروريبه يعرف كيف يجتاز المحن مرفوع الرأس. فيتابع مقاومته العنيدة. ويهرع الى المطبخ ويستولي على قِدْر وضع على النار دون أن يبالي حتى برفع غطائه.

ـ آه! الويـل لكما أيّها القردان اللعينان، يشتُم البدين باللغة الاترورية(*)، قِدر من الماء الغالي قد يهدىء من روعكما.

وها انّه يدلق محتوى الوعاء في اتجاه المتناتشين. ويا لهولِ ما

(*) منطقة كانت تقع قديماً في غربي إيطاليا. (م. ع).

فعل، فالقدر لا يحتوي ماءً بل حساء لحم العجل الدهني. والأشدّ هولاً أن الرمية تخطىء المتعاركين وتُصيب برت مباشرةً في مقوّرها الحاسر عن الكتفين والصدر. آه! بحقّ الأسلاف، حساء لحم العجل الدهني الكثيف، إنّه اكتشاف العصر. وتبدأ ب. ب. بويلاه تشبه صفير المصانع عند ظهر أول خميس في الشهر. وتصرخ بأنها تموت. ولكنّ قوة صراخها تُطمئن. فتنزع بلوزتها الحرير المزركشة برسوم القرنبيط المزيّن بأوراق الورد. ثمّ تنزع صدريتها ذات الحواف المصفّحة وتفك أزرار المشدّ واقسم لكم أن استعراضاً من هذا النوع كان ليثير عاصفة تصعق في كباريه «الكرايزي هورس صالون».

وإذ يُسيئه اخفاق رميته الأولى المُخجل، يستخدم البدين وسائل أخرى أكثر فعالية. فيسارع الى اللمبادير ذي القاعدة الخشبية فيلوّح به في كل اتجاه. فتكون حصيلة الأضرار على النحو التالي: إناءان خزفيّان، إطار صورة والديه، مجسّمُ أيّلٍ من الجصّ المزركش، اكليل من زهر الليمون (تحت قبة زجاجية)، تمثال نصفي للجنرال ويغان، جهاز ترنزستور، شاشة التلفزيون، ومرآة خزانة الأطباق، رخام الموقد، شمعدانان من الخشب الأصلي المزيّف، كركند مصبّر، ميزان حرارة معطّل، إبريق حَقْن، زوجان من المصابيح الجدارية من الطراز الامبراطوري، وصينية الفاكهة، كلّها أصبحت حطاماً في مهلة قياسية. وفي آخر المطاف قُذف اللمبادير باتجاه المتعاركين من ذوات الفراء. وينطلق نخير النمر فيكشف عن صفٍ من الأسنان السليمة ويسقط أرضاً. ويروح كلب السان برنار الذي ساءه أن يُصاب رفيقه، يتشمّم فروته الرطبة. ثم ضربة لمبادير ثانية ترمي به كلباً افقياً سويّة الأرض. وعندئذ يرمي بيرو بسلاحه من

فوق كتفه الى الوراء، فيستقر غطاء اللمبادير فوق رأس برت التي ارتـدت زيّ حواء. ولا يستطيع أحد منكم أن يتخيّل مظهر المرأة الحوت التي لا يكسو جسدها من الملابس سوى: جوربين وغطاء لمبـاديـر من الورق المقوّى وبقعة حمراء هي أثر حرق. وها هي متهالكةً لا تقوى على الصراخ. خائرةً، مغلوبة، راضخة! لقد كان بيرو على حقّ، فهـو السيّـد الأوحـد على المتن بعد الله سبحانه. فيُحصي الأضرار: نمر ميت، وكلب سان برنار مصاب بكسر في مؤخر ظهره، وينبغي الاسراع الى مخازن ليفيتان لإصلاح الأضرار التي أصابت المنزل. .

ـ هذا يحدث حين أخرج عن طوري! يقول كمن يطلق الانذار الأخير.

ولكنَّ كلامه الحازم هذا لا يحولُ دون ارتباك مفاجىء ينتابُ نبرةَ صوته. فالبدين يعلم حقّ العلم أن الردّ الانتقامي وشيكٌ جداً. ذلك أن برت ليست من طراز فتيات الرعيّة التي تكابدُ الإهانة طويلاً دون ردّ الكيل كيلين. وسيكون ردّها الانتقامي مزلزلاً أيها الفتيان!

في الأعلى، كان العجوز الأصمّ قد جلس على كرسيّ عند حافة الفجوة ومكث يُراقبُ بشغفٍ كما يراقبُ البطريق مضيق بيرينغ من خلال فجوةٍ أحدثها في طبقة الجليد.

فهـو يعرف جيرانه جيّداً. ويعلم أنّ الجولة الثانية ستبدأ وقد تستغرق في هذه الحالة وقتاً إضافياً. فحتى اللحظة يُحافظ بيرو على تفوّقه في أرض الملعب، ولكن زوجته الحوت تستجمع قواها. وها هي تنهضُ مستعينـة بالخـادمة. فترتدي تنورتها وبلوزتها. وبعد أن

سترت أضخم ما فيها بدت جاهزةً لمناورات الربيع. والهدوء الذي تبديه ينذر بأوخم العواقب.

ويقع المحذور.

تتلفت من حولها فلا تجد في متناولها ما يُشفي غليلها، فتدخل الى غرفةِ النوم بحثاً عن الأداة الملائمة. وتعود مسلحة بعدّة صيد الأسماك التي يستخدمها حضرته. وبدرايةٍ مدهشة تستحيل القصبة، بين يدي السيّدة، الى عصا كمبوديّة غليظة معدّلة بما يناسب استخدامها كهراوة.

- برتي! يلفظُ المتوسّلُ شكواه.

أذُنها مثل حجر الصوّان. وها هي تقذف بكرة القصبة فتصيبُ زجاج النافذة. تبكي الخادمة وتشهق. إنها طيبة هذه الخادمة، مهنتها تقتضي منها الطيبة. وتسترسل في صلواتها، «أبانا» واحدة باللاتينية وثانية بلهجة البروتانية، وثالثة مصحوبة بالإشارات، ولكن يبدو أن السماء لا تفهم هذه اللغات الثلاث هذا الصباح. تقلب السيّدة بيرو طاولة صالة الطعام لكي يُتاح لها أن تتصّرف بحريّة. وعندئذ يُدرك بيرو أنني الأمل الوحيد الذي تبقى له.

- سان أ! يقول متوسّلاً، افعل شيئاً! أنت ترى جيّداً أنني لست المخطىء الوحيد.

وترفع برت عينيها الحمراوين كعيني مصارع ثيران نحو الجار الأصمّ.

- أنت شاهدٌ على ما جرى! تصرخ مثل البقرة.

- إنها الثانية عشرة والدقيقة العشرون! يُعلن الرجلُ الوقور.

ـ يا عزيزتي برت، قلت متوسّطاً بينهما عليكِ بالهدوء. إنّ امرأة جميلة مثلك ينبغي أن تكون قادرة على تمالك أعصابها.

فأجابتني بالسؤال عمّا يجعلني أحشر أنفي في ما لا يعنيني. وإذ أحار جواباً مكثت صامتاً في دور المتفرّج. أوه! أيها الفتيان، يا لها من معركة أطباق! كل أوعية الليموج الفاخرة تستحيل حطاماً. ويهرع سكّان العمارة الى أبوابهم يدفعهم الفضول. وتأتي سيدات بأشغال الصوف يتابعنها في الأثناء وينسى السادة أن يُحضروا مجلّاتهم المفضلة. وتتصل الحاجبة بمصلحة جمع النفايات علّها ترسل شاحنةً لرفع الأنقاض ونقلها. وربّما الأجدر أن تتصل برجال الاطفاء؟

أقفُ حائلاً بين الزوجين.

ـ ابتعـد، أيّها الوغد، وإلّا طرحتك أرضاً أنت أيضاً! صرخت البدينة الشمطاء.

ـ مهلاً، يا سيدتي العزيزة، لديّ سؤال وحيد أريد أن أطرحه على زوجـك. قل لي، أيهـا البدين، ماذا أخبرك موربيون حين اتصل صباح اليوم؟

ـ أراد أن يتحدث اليك، يُبرطم المنتفخ. وقال إنّ الأمر ملحّ جداً. مسألة حياة أو موت. وانه ينبغي ابلاغك مهما كلّف الأمر...

لم يتمكن من اتمام عبارته. فقد التفّت برت من ورائي حاملةً احدى الكنبات وقذفت بها مُطيحةً بوجه بدينها.

أعبر على جثة البدين لأصل الى باب النجاة.

ـ أتغادر الآن! تقول امرأة عجوز.

ـ أجل، قلت معتذراً، لدي موعد مهمّ. ولكني سأحاول أن أعود في نهاية عرض الساعة الثالثة لأشاهد الخاتمة.

الفصل العاشر

الرقم ٤٤ من شارع سان مارتان يشبه الرقم ٤٥، سوى أنه يقع في الجهة المقابلة من الشارع. إنّه منزل بجدران وسطح ونوافذ. وله بابٌ ندخل منه، وسلالم للصعود الى الطبقات العليا وحاجبة تنصح الزائرين بمسح أحذيتهم جيّداً قبل أن يصعدوا. سألت السيدة المذكورة عن شقة الآنسة ياباكسا دانلافي. فقالت انها تسكن الطبقة الأرضية، الأمر الذي يُضاعف من غبطتي وسروري لأنّ المبنى غير مجهّز بمصعد برغم عدد طبقاته.

يُطالعني باب ضيّق أجرد ألصقت عليه بطاقة زيارة: إنّه الباب المقصود! لا وجود لجرس، فأثني سبّابتي وأستخدم إصبعي الثانية، بمثابة مطرقة. إنها معجزة التقدّم: يُفتح الباب. تقف الآنسة ذات الجديلتين أمامي بجديلتيها بالطبع. وأرجو أن تدركوا جيّداً أنني لا أكون سوى ناطق باسم الحقيقة الصادقة حين أؤكد لكم أن هذه الصبيّة هي الجمال عينه في أجمل صورة!

شعرها الأسود الفاحم يُبرز جمال بشرتها الشاحب، والعكس بالعكس، يُبرز جمال بشرتها الشاحب ألق شعرها الفاحم. لها عينان مذهلتان: بلون الخبّازي تشعّان ألقاً مذهّباً. وجنتاها بارزتان

قليلاً، شفتاها مكتنزتان، أنفها دقيق وقدّها الأرهف (أقصد: الأهيف)، وساقاها وقدماها وكلّ ما فيها يجعلها أشبه بتحفة فنيّة أين منها فينوس رفيقي ميلو. إلّا أن أجمل ما في هذا المخلوق الفاتن، بالإضافة الى روزنامة مصلحة النقل المشترك التي تمثّل مغنياً خلال خسوف القمر، فهو صدرها. ما أن تتعرّف على النهدين حتى تعشقهما كما يزعمُ أحد الأمثال. ونهدا باباكسا يتمتعان بما قد يستثير حماسة عمومية. أولاً بسبب حجمهما الرائع. وليس ذلك لأنني أعير انتباهاً خاصاً الى الكَمّ؛ ولكن حين يكون الكم جزءاً متمماً للمتعة، فلم لا؟ وأحسب أن نهدي الآنسة من العيار الثقيل، يا فتيان! وللمقارنة فقط أحسبُ أن الرخام الأصلب يبدو حيالهما مجرد مطّاط رخو. ولا بدّ أن مداعبتهما من بين أكثر الخبرات عنفاً. انّهما يصيبانني بالخدر.

- الآنسة دانلافي؟ أنعقُ شاخصاً في زرقة نهديها.

فتردّ علي بابتسامة كم أودُّ أن أجعلها هديّةً لكلٍّ منكم في يوم سَعْده.

- أوه! أوه! الكوميسير سان أنطونيو، تغرّد وردة الابانيا النادرة. أي شرف عظيم يجعلني أستحق زيارتك؟

فأمكثت مذهولاً كطيف الميدوزا، يا فتيان.

- أتعرفينني؟ سألتُ مستجوباً.

- ومن لا يعرفك! وكيف لي أن لا أعرفك بعد أن عملتُ طويلاً في مكتب السيّد بينو! لقد كانت صورك تملأ حيطان المكتب يا حضرة الكوميسير.

لا داعي لأن تتحدّث في برنامج إذاعي لكي يتضح على الفور أنّهـا على قدر من الذكاء والنباهة. ولا يظننَّ أحدكم أني لا أبالي بالمديح. فما قالته الآنسة من العيار الذي يُصيبني توّاً في الصميم. وأقبله دون تمحيص.

وهذا ما أفسح لي المجال لكي أدخل الى مسكنٍ في حجرةٍ واحدة متواضعة الأثاث ولكن نظيفة.

رأيت فوق طاولة صغيرة طبقاً وضعت عليه قطعة لحم مجفف، وبقربه كوبٌ من الحليب. وإلى جانب الكوب موزة تحتفظ بها، على ما يبدو، للتحلية وإن كانت تحيا بمفردها.

ـ لقد كنتِ تتناولين غداءك، أعتذر للإزعاج.

ـ لقد سررتُ بزيارتك، تجيب الطفلة الجميلة، هلّا شاركتني طعامي؟ لدي قطعة أخرى من اللحم في الثلاجة، فلا تشعر بالحرج!

ـ أقبل الدعوة بشرط أن تقبلي دعوتي الى العشاء هذه الليلة.

راحت أجفانها ترمش برفق بالقدر الكافي الذي يجعلها تتخذ مظهر المرأة المحتشمة لا الوقحة أو السليطة.

ـ ولـِمَ لا؟

بمثل هذه البساطة، يا فراخي. هل يجرؤ أحدكم على القول من الآن فصاعداً أن فتنة سان أنطونيو ليست سوى خرافة تروّجها صحف الأخبار الاجتماعية؟ إذ لم أكد أبادرها بتحية الصباح حتّى تدلّهت في غرامي. وتفتح علبة بازيلّا وتضع بعض الزبدة في وعاء لتسخن هذه الوجبة النباتية. إنّ جديلتي الصبيّة الرائعتين تغريان بالتمسك بهما وكم أودّ أن أسلسَ قيادها ممسكاً بهما. أو

أن أنهـر جمـوحها: هيو! لكن خبرتي في هذا المجال تؤكّد لي أن المبادرة ينبغي أن تكون من نصيبي. وإذا كنتم تجدون كلامي هذا فاحشاً بعض الشيء، نبّهوني: وعندئذ سأحاول أن أكون أقل فحشاً.

نقضمُ طعامنا على مهلٍ ونحن نتبادل النظرات الموحية الثابتة.

ـ لا بدّ أنّك تحسبني فتاة سهلة؟ تمتمت فجأةً، ولكن السيّد بينو حدثني كثيراً عنك وهذا ما جعلني أشعر بأنني أعرفك حقّ المعرفة.

لا أشعر بارتياح كبير لأقوال البينوش بشأني. إذ يصعب أن يكـون المرء بمستوى ترّهاته، ذلك أن بينوشيه دأبه المبالغة. لقد وصفني على أني السيّف القاطع الأوحد لهذا القرن! والرجل ذو العصا الفولاذية! والكازانوفا الحديث المثلث القدرات!

ـ ولكن بالفعل يا كوميسير ما سبب هذه الزيارة؟

ـ لأنك ألابانية، قلت.

فيقتم وجهها، الأمر الذي يُعتبرُ، نظراً للون شعرها، حدثاً خارقاً غير عادي.

ـ لا أفهـم.

ـ لقد تقدمت منذ بعض الوقت بطلب تأشيرة دخول الى بلادك للعودة الى هناك.

ـ لم يكن في نيّتي أن أعود اليها، بل أن أذهب الى هناك، قالت مصوّبة، لأنني لم أطأ أرضها من قبل. لقد ولدت في فرنسا، ولكن بعض أقاربي ما زالوا هناك وكنت أودّ أن أزورهم للتعرّف اليهم، ولذلك فقد تقدمت بطلب قبل موعد العطلة الأخيرة...

ـ ورفضوا منحك التأشيرة؟

ـ أجل. ألم يتمّ استدعاؤك الى القنصليّة بعد ذلك؟

ـ لا، ولـمَ استدعى الى هناك؟

تردّدت بعض الشيء قبل أن أفسّر لها الكيف الملائمة للماذا التي طالعتني بها.

ـ هل قرأت الصحف؟ قلت بشيء من المواربة.

ـ بالطبـع.

ـ وهل قرأت الأحداث المتفرّقة التي جرت في شارع «لا بومب»؟

فتقـول:

ـ أجل، بالفعل. قصة ذلك الزجّاج الذي وقع من النافذة يوم أمس، ثمّ حادثـة قتـل هذين الحـارسـين أثناء الليل. وهل تتولّى التحقيق في القضيّة أيّها الكوميسير؟

ـ على رؤوس أصابع قدميّ، أقول ممازحاً.

ـ الآن افهم؟ لا بدّ أن السيّد بينو قد حدّثك عني فحسِبْتَ أنك قد تستعين بي لفهم العقلية الالابانية؟

ـ شيء من هذا القبيل بالفعل.

ـ للأسف الشديد لن أكون خير عون لك، تعترفُ ياباكسا وقد ابتسمت تواضعاً. لقد تلقيت تربية على الطريقة الفرنسيّة، وأمي فرنسيّة. لم يمنحني أبي الالاباني إلّا الاسم. قصدت القنصلية مرتـين: في المـرّة الأولى لأتقـدم بطلب التأشيرة، وفي المرّة الثانية لأحظى بالرفض. ولا أعرف أحداً من الرعايا الالابانيين.

ـ أتجيدين اللغة؟

ـ ما أجيده منها يكاد يُسعفني في طلب قطعة بفتاك مع البطاطا المقلية في أحد مطاعم ستروكلا، العاصمة...

وتسكب لي بعض البازيلا. ويثملني حضورها الرقيق، وضوع عطرها.

ـ أين تعملين الآن؟

ـ أعمل في مصنع للمواد الغذائية ولكني الآن في إجازة لمدة ستة أيام. ذلك أن المصنع يحاول في هذه الأثناء استقدام المواد الأولية.

كم كنت أودّ أن أنحني عليها بصدري ماعساً صدرها الى الوراء فور انتهائي من البازيلا. إلّا أن مصير الأب موربيون لا يُفارق عينيّ، فما هو الشيء الملحّ الذي أراد أن يطلعني عليه؟ ولماذا ادّعى أنها مسألة حياة أو موت؟ الى أين ذهب؟ وما الذي دفعه الى انتزاع رقّاص ساعته اللعينه؟ عدد كبير من الأسئلة المحيّرة عليّ أن أهتدي الى أجوبتها!

ـ تبدو لي شارد الذهن، يا كوميسير؟

ـ بالفعـل.

تُراه كيف يكون عزيزك سان أنطونيو، يا حوريتي! فما يقلقني في هذه المعمعة قد يكون سلوكي أنا بالذات! مثلاً، أستيقظ هذا الصباح بعد ليلة من الحركة والتشويق وبدل أن أهرع الى المكتب، أقرّر البقاء في أحضان فيليس. أمر مستهجن، أليس كذلك؟ ولكنّ عصر الراحة لا يدوم طويلاً فأغادر المنزل وأعود الى عملي وها أنذا أتناول طعام العشاء الى جانب ضرّاطة صغيرة لا أعرف عنها (بعد)

لا طعمَ الشفة ولا عضة الأسنان. فما الذي دَهَاك يا سان أنطونيو؟ هل نالَ منك مرض «أبو كعيب» أم ماذا؟ أتعـاني من التهاب أم أن هرموناتك تعاني من نقصان الحيوية؟ كل هذه الأمور قابلـة للعـلاج، يـا بني! يجب أن تستشـير الطبيب لا أن تغفـو عـلى أريكته. ولن يلبث قائد العيادة أن يوفّر لك العلاج، على الفور!

أسهو قليلاً وقد شخصت عيناي في المقوّر ـ الـمُحتشم بعض الشيء ـ الذي ترتديه ياباكسا. وأشعر أنني على أهبة الغليان أيها الفتيان.

ـ إذاً، يا حشاشة قلبي، أقولُ بصوت منخفض بعدَ أن طفوتُ على السطح مجدّداً، انت تعلمين أنني أحتاج بعض المعلومات حول الابـانيـا الجـديدة والالابانيين. لا بدّ أن هناك جالية الابانية في باريس، اليس كذلك؟

ـ أعرف مطعماً الابانياً قرب ساحة بيرين. حيث يستطيع الراغب أن يأكل أطباق الكرسويار والكوليانباتون ويُقال أنها تحضّر باتقان كما في العاصمة ستروكلا.

ـ وما عدا هذا القصر المطبخي؟

ـ لا اعرف شيئاً آخر.

ـ أنذهب هذه الليلة لتناول العشاء فيه؟

ـ إذا كنت مصراً، فلا مانع عندي. أنا في إجازة، كما قلت لك.

نتقـاسم المـوزة وتسـألني مضيفتي الجذّابة إذا كنت أشرب القهوة. فأرحّب بالفكرة ظناً مني أن القهوة قد تساعدني على تمالك نفسي؟ فأقتعد كنَبتها فيما تنشغل هي بتحضير قهوتها.

ـ تعيشين بمفردك؟ سألتها.

سؤال صعب، فتهزّ رأسها.

ـ كان لديّ صديق. ولكننا انفصلنا.

ـ مما يعني أنك في إجازة تامّة؟

تقترب لتجلس ملتصقةً بي فيما نحتسي القهوة. وأحسبُ أن تفوّقي عليها من حيث بنيتي الجسدية (اثنتان مقابل واحدة! يترك تأثيراً طيّباً ومشجّعاً. وللتثبّت من الأمر: ألقي بذراعي رخوةً (كما تقول غلوريا) فوق كتفيها. فتبدو قانعةً مستسلمة للطُعم، لا بل وديعة مستأنسة. ياباكسا، انها من هواة القبلات الملتهبة. وتأنف من اللقاءات المستعجلة بأطراف الشفاه. وما تريده هو كلّ شيء وعلى الفور كيما تختار الأمتع فيما بعد.

وأدرك من تلهّفها مقدار ما تكابده من العزلة. لقد أنهكتها خيالات العشق وسرابه. وتودّ لو تسمع نشيد الجوقة الأجنبيّة، بترجمته البلجيكية: «إذاً، هذا صنيع بودوان، هذا صنيع بودوان!» (...) وها هي تناديني فرنان ولكني لا أبالي، فأنا لست بالمتزمت. وثمة المئات من الجميلات في العالم الشاسع الأرجاء ينادين أزواجهنّ باسم سان أنطونيو حين يحاول هؤلاء أن يمثلوا دور السوبرمان! إلّا أنها برغم نشوتها تفطن الى الخطأ الذي ارتكبته وتعتذر، فتنال مني الغفران بلا تردّد. تتواصل المشاحنات بلياقة وتهذيب شديدين. ويبدو أن المحادثات تتريث قليلاً في طريقها المسدودة، إلّا أن الحوار لا يلبث أن يُستأنف مجدداً ونتوصل الى خاتمة سعيدة لكلا الطرفين. وإذ أهمّ بالتعبير عن امتناني لها وإذ

تهمّ، هي، بطلب المزيد، نسمع طرقة على بابها. فترتسم على وجهينا معالم انزعاج موحّد. فترمقني يباكسا بعين استياء لاعنةً هذا البغيض الذي يسمح لنفسه أن يُقاطع مثل هذا اللقاء الممتع النبيل، ونسمع طرقة ثانية.

ـ افتحي الباب! يصرخ صوت جهوري. الشرطة!

تترجح جوزة عنقي كما تتأرجح سيّارة جيب مسرعة في الوعر. إذا كانت الشرطة تداهم منزل الآنسة جدائل، فسأجد نفسي في ورطةٍ مهينة، يا أخوتي. نظراً للموقف الذي أجدني فيه!

ـ لحظة! تجيب الصبيّة.

تنهض فيما تتجمّد أوصالي تحت الأغطية. وتتجه نحو الباب في حُلّةِ حواء، وتفتح عتلة القفل بعد أن جانبت الباب تماماً ستراً لعريها. ثم تفتح غطاء العين السحريّة على مهل وتلقي نظرةً خاطفة الى الخارج.

ـ ماذا تريدون؟ تسأل.

ـ هل أنت الآنسة دانلاڤ؟

ـ أجل، ولكن لماذا...

فيُسمَعُ صوت غريب، يشبه صوت النقّار الكهربائي. ويهتزُّ الباب وترتسم فيه ثقوبٌ متلاحقة. بومضة بصر أدرك حقيقة الأمر: ياباكسا تتعرّض لإطلاق نار بمسدّسٍ من العيار الثقيل ومزوّد بكاتم صوت. وبمعجزة تنجو من رصاصات الجاني. وهل تعرفون لمن يعود الفضل في نجاة الالابانية الجميلة؟ يعود الفضل في ذلك الى الكوميسير الطيّب سان انطونيو. فشكراً لك يا حضرة الكوميسير:

لقد أحسنت صنعاً! لقد كنتُ شديد الفطنة عندما أغويت هذه الطفلة الرقيقة، بجذبها اليك والسيطرة عليها وإلحاقها بك وحجزها وتجريدها من ثيابها. فقد اضطرت للوقوف مواربة عند زاوية الباب لأنها عاريةولا تريد أن تعرّض مفاتنها العاجيّة لأنظار زائريها القدامين. أوتدركون الآن؟ ولذلك لم يُخمن مطلق النار أن خصوصه النارية تخطىء الهدف وتنقر الجدار المقابل، تنتهي أعمال الدّرْز الناري. فأمسكُ على عجل، وحسب الأولوية، بحاجتين لا غنى لي عنهما، أقصد: سروالي ومسدّسي. وباندفاعة هائجة أطرح الفتاة التي بدت لي جثة لا حياة فيها، على الأرض وأتوغّل في الرواق. وعند المدخل أرى رجلاً نحيل الجسم يرتدي مُشمّعاً أخضر وقبّعة، يَهرَعُ مثل المعتوه. وتصرخ حارسة المبنى عندما ترى الطقم الذي ارتديه. ولكي أهدىء من روعها ارتدي سروالي وأهرع راكضاً في شارع سان مارتان، مسدسي في يدي. لا أستطيع وصف المشهد، يا إخوتي! رجل شبه عارٍ يركض شاهراً مسدسه، والمارة كأنهم أمام واجهة متجر لا يدارون ذهولهم! فطن الرجل الذي يرتدي مُشمعاً الى أنه مطارد وراح يطلقُ النار. وخوفاً من أن أصيب أحد المارة امتنعتُ عن الردّ على النار بالمثل. ولن يمضي وقت طويل قبل أن أصبح هدف النيران. وسيعترضني البعض ظنّاً منهم أنني مجرّد معتوه تنتابني أزمة أعصاب حادّة...

لديّ ما أتفوّق به على المطارَد: أنا أركض حافي القدمين ولا تعيقني الملابس خلال الركض.

لذلك اقتربت منه دون عناء. عشرة أمتار فقط تفصلني عنه وبعد ذلك سأنال منه. يُدرك خطورة الموقف فيطلق رصاصةً الى الوراء. تئزّ

الرصاصة لصق أذني وتصيب محرّك شاحنة. ستة أمتار.

- قِف وإلّا قتلتك! أصرخ به.

وبدل أن يجيب يحاول إطلاق النار مجدّداً إلّا أن مسدّسه فرُغ من الرصاص. وعندئذٍ يدخلُ الى أحد المباني. فألحق به. يصعد سلماً خشبياً؛ وأنا أيضاً (كما يقولُ مقلّد تافه).

أسرع وأمسك بطرف مشمّعه. وأشدّ فيسارع الى نزعه ولا أحظى إلّا به. يواصل تسلّقه السلم. وكذلك أفعل. عاد وتقدّمني بمسافة ما. وأسمع تكّة سلاحه إذ يذخره أثناء تسلقه. تجاوزنا الطبقة الأولى والثانية ثمّ الثالثة. وعند الطبقة الرابعة نهاية الخط: ليترجّل كافة الركّاب. أدرك مخططه. ينبطح فوق قرص الدرج بمحاذاة السلم. فيحتل بذلك موقعاً استراتيجياً لا يُستهان به. ويتحاشى صاحبكم أن يرتكب هفوة اللحاق به. بل على العكس أسارع الى النزولِ بضع درجات بحيث أتمركز عند قرص درج الطبقة الثالثة. لقد تعادلنا على نحو ما. أنا لا أستطيع الصعود وهو أيضاً لا يستطيع النزول. ومن جهتي أفضل موقعي على موقعه. تتناهى إليّ من الأسفل ضوضاء حشد. ثمّ يتناهى وقع مداساتٍ من صنع بولـان تمعسُ درجات السلّم الخشبي صعوداً. ثم أرى واقيات قبّعاتٍ نظامية تتوالى عند الطبقة السفلية.

- إرم سلاحك وارفع ذراعيك! يأمرني شرطيّ.

لقد صدق من قال أن الشرطي ليس فأل الخير.

- دَعْك مني الآن، يا فتى، أقولُ، فأنا شرطي مثلك، بل إهرع لاستدعاء التعزيزات لأنّ قاتلاً خطيراً يحتلّ الطبقة العليا.

ـ إن لم ترمِ سلاحك على الفور، سأطلق النار! يجيبُ الشرطي المتمرّن.

يا له من ضعيفِ إيمان!

ـ أنا الكوميسير سان أنطونيو، أصرّح له واثقاً ممّا سيسفر عنه وقعُ الاسم عليه.

ـ وأنا الدوق دوغين، يجيبني هذا المثقف الحصيف الذي يتابع مسلسل السيّد كوستيلو الاذاعي.

إذ يستحيل عليه أن يفهم كيف يمكن لشرطي أن يتنزه عارياً في شوارع باريس. أتفهمون الآن؟ فالشرطة مدرسة الاحتشام.

وإن لم يسعفني ملاكي الحارس على الفور (كما يقول صديقي فريدريك)(*) بمدٍّ من مخيلته، فسأجد نفسي صريعاً برصاص إخوة السلك، وعندئذ تكون الطامة الكبرى.

ـ لا تطلق النــار، بحق السمــاء، أقول لك مجدّداً أنني سان أنطونيو. إذهب الى الرقم ٤٤ في هذا الشارع، وستجد عند الآنسة دانلافي ملابسي وأوراقي الثبوتية.

ـ وبينما أفعلُ، تكونُ...

فأهتدي الى فكرة خارقة.

ـ إن الكوميسير في مفرزتك يُدعى «نيزيل». «غاستون نيزيل»، الملقب بـ «العمّ»: صحيحٌ أم لا؟

(*) إن سان أنطونيو هو الإسم المستعار للكاتب فريدريك دار الذي وقّع باسمه الصريح عدداً من القصص البوليسيّة القصيرة.

فأراهما الآن. إنهما شرطيان وقد ارتبكا لما سمعاه.

ـ وقبل أن يُعيّن نيزيل، كان الكوميسير يدعى «بلوشو»، «ادوار بلوشو». وكان خدّه الأيمن مكسوّاً بوحمة على هيئة لطخة نبيذ.

لقد أفلحتُ، يا فتيان.

ـ قد يكون شرطياً بالفعل؟ يهمسُ الشرطي الثاني في أذن رفيقه.

أطلب منكما أن تستدعيا بعض التعزيزات. ففي الطبقة العلوية يتمركز قاتلٌ محترف أريد اعتقاله حيّاً...

ـ لا حاجة للتعزيزات! يقولُ ضعيفُ الايمان متشدّقاً.

وينضمّ إلي حاملاً مسدّسه. وما أن يقترب مني حتّى يتأمّل وجهي.

ـ بالفعل، يقول هامساً. أحسب أنك الكوميسير سان أنطونيو.

ـ أما أنا، فواثقٌ من أنني سان أنطونيو، أجيب.

يعوزه الاحترام. فلا بدّ أن المخبول الذي ادّعى ذات يوم أن المُسـوح لا تصنع الكاهن، مصابٌ بلوثة في دماغه. وأراهنكم أنّ سوبرمان بالذات لو فقد ملابسه لما أطاعه مرؤوسوه. ولكي يثبت لي كفاءته تابع الدركي صعود السلّم. وبالطبع، ما كان سيحدث في مثل هذه الحالة قد حدث فعلاً: يتلقى رصاصة في وجهه. فيمكث للحظات بلا حراك، مصعوقاً، ثمّ يتدحرج الى الخلف وتستقرّ جثته الهامدة فوق درجات السلّم، رأسه الى الأسفل، ودماء غزيرة تتدفق من وجهه محدثةً جلبةً فظيعة.

ـ هل فهمت الآن؟ أقولُ مخاطباً الشرطي الآخر. هيا، استدع

مفرزة الغاز المسيل للدموع بسرعة.

فيهرعُ الى الهواء الطلق.

لم تحـدثُ الطلقــة دويّــاً بسـبب الكــاتم (انهــا عادة لدى الالابانيين). ومع ذلك شرع سكان المبنى يخرجون من مساكنهم وقد أقلقتهم الضوضاء. أسمع باباً يُفتح، فوق، في الطبقة العلوية. طلقة أخرى تتبعها صرخة وارتطام جسمٍ بالأرضيّة. أسمع دبيب أقدام. لقد غادر القاتل مكمنه ليختبىء في شقّة أحد سكان المبنى بعد أن قتله. فأصعدُ حذراً، وبالفعل، أجدُ صحن الدرج خالياً إلّا من جثة رجلٍ عجوز.

أرى البـائس يتخبّـط في حشرجته المضحكة المبكية. فالحياة مرض يصعب أحياناً الشفاء منه.

لا يوجـد في الطبقة الرابعة سوى باب واحد، إذاً لا خيارَ لي، التصقُ بالحائط وأصوّب استون رفيقي الغدّار نحو القفل. وأطلق النار. تحدث الطلقة دوياً هائلاً ويُفتح الباب. ألقي نظرة. تبدو الشقة بائسة: حجرتان صغيرتان قذرتان وقد أثثتا بأرخصِ القليل، نافذة مفتوحة، فأهرع اليها... أرى قاتلي يركضُ فوق السطوح. لقد قفز من علوّ خمســة أمتــار فوق سقف التوتياء لأحد المخازن وراح يركض في اتجاه المدخنة. كم أود أن أقفز بدوري للحاق به ولكني حافي القدمين وقد أكسر أحد عقبي. ولذلك أمدّ يدي وأغمض عيناً واحدة. إنها دائماً لحظة مريعة حين تطلق النار على فارّ. فالردّ على النار بالمثل أمر هيّن لأنه عفوي ولا يحتاج لكثير من التفكير. ولكنّ التصويب في اتجاه شقيّ فارّ يتطلب قوة شخصيّة ليست عادية على الإطلاق. أصوّبُ الى ساقيه وأطلق رصاصاتي. فينقذف الهاربُ في

حركـة دوران وينطرحُ أرضاً. يحاول أن يتشبث بشيء ما، ولكن انحـدار السـطح يتلقفـه يُدحرجه ثم يودي به. يتدحرج بسرعة متزايدة. تسقط قبعته التي تستقرّ على المعدن الرمادي كشيء منفّر وأبله. يتدحرج صوب هوّة الحافة. ولثوان يُفلح في التشبث بطرف الإفريز بيدٍ واحدة. لكنها للأسف اليد التي تمسك المسدس. لم يفلت سلاحه. ولم يتشبث بخشبة خلاصه إلّا بإصبعين، ويتضح أنهمـا لا يكفيان لانتشال ثقله. أمكث واجماً بلا حراك، منقبضَ الصدر. فبرغم كونه قاتلاً محترفاً...

صرخات بعيدة، ثم جلبة ارتطام أبعد.

أتـأمّل القبعة على السطح. وللحظات يتراءى لي الكون كئيباً وفارغاً مثل هذه القبعة.

الفصل الحادي عشر

ان المعطف العسكري يُشبه السكاكين السويسريّة: فهو قابلٌ لأن يُستخدم على أكثر من وجه. فمعطف الشرطي الخائف أعانني على ستر عُريي شبه التام أما معطف زميله فاستخدم لسَتر جثة القاتل المهشّمة.

ينبغي أن أعترف أن إجراء التحقيقات في شارع مزدحم من شوارع باريس وأنت لا ترتدي من ملابس سوى سروالاً ومعطفاً أسود قصير، مأثرة لم أحسب في حياتي أنني سأكون قادراً عليها مهما أرغمتني الظروف. أمكثُ هنا أمام أعين الفضوليين الذاهلة. وثمة سائح أميركي يلتقط صوراً لي في كافة الأوضاع. أفتّش جيوب القاتل المقتول: أجدها فارغة. لا شيء. لا قصاصة ورق، لا رخصة صيد، ولا حتّى مجرّد تذكرة للميترو: بعض الأوراق النقدية ولا شيء آخر. أتمعّن في وجه الفقيد ـ ما تبقى منه ـ والاحظ أنه أجنبي في الثلاثين من عمره تقريباً، ومجدورٌ مثل شهر آذار. فلا داعي لهدر الوقت عبثاً، فستهتمّ المفرزة المختصة برفع بصماته. وأعود أدراجي الى وكر ياباكسا. تبدو لي الفتاة المسكينة كتلة من الذعر. وباصبع مكتئبة تداعبُ الثقوب التي أحدثتها الرصاصات في الحائط. لقد اخترقت احداها سيفراً صغيراً كانت قد ابتاعته من

بابيلون، فيما ثقبت أخرى صدريتها الملقاة على مسند الكرسي.

ـ قولي يا فرختي، هناك دائماً ما يدعو الى التسلية في حيّكم، سألتها ممازحاً.

تسألني عن تتمّة الأحداث فألخّصها لها.

ـ لماذا أطلقوا عليّ النار؟ تقول متلعثمةً. ماذا فعلت؟

إنها تستخدم اللغة نفسها التي يستخدمها بينو. ذلك أن كلّ الأبرياء يُعبّرون عن مثل هذه الشكوى حين يكون القدر جائراً الى هذا الحدّ.

ـ هذا ما ينبغي أن نتوصّل اليه. أقولُ دون أن أدخل في التفاصيل.

لاحظوا جيّداً أن لديّ فكرة ما غير واضحة بهذا الشأن قد تكون غائمة بعض الشيء، أعترف، ولكنها، برغم ذلك، مثيرة للاهتمام.

ـ لا بدّ أنه كان يُطاردك، أليس كذلك؟ تسأل بإلحاح كيما تطمئن.

فأقول بصراحة.

ـ لا، يا حشاشة قلبي، أعذري صراحتي، ولكنّ المستهدف هو انتِ بالذات، فلو أن الجاني كان يطاردني لما تجرّأ على الزعم بأنه شرطي برغم يقينه أن الرجل الذي جاء لزيارتك هو شرطي حقيقي.

صوّبت باتجاهها نظراتي التي لا تقاوم عيار ١٤ مزدوج، تلك التي جعلت امبراطورة السنغال ترتعش والتي تقض مضاجع رئيسة جمهورية الإسكيمو.

- وبالامكان القول إنني كنتُ هنا، أليس كذلك يا حلوتي؟

لقد أعاد الإطراءُ الى سُحنتها بعض اللون.

ولأني لا أخفي عليكم شيئـاً أيّها الفتيان (فأنتم أوغاد ولكنْ ظرفاء) فسأكشف لكم عن سرّ اللماذا في كيفِ تفكيري. عندما ذهب بينوش الى قنصلية الابانيا متنكراً في زيّ زجّاج، تمكّن هؤلاء من التعـرّف اليـه. فالأبله العجـوز يبدو في الصورة برفقة ياباكسا، أتذكرون؟. ولذلك توصّلوا الى استنتاج منطقي مفاده أن الآنسة ذات الجدائل متورطة في القضيّة مما اقتضى القيام بعملية انتقامية.

قد أكون مـخطئاً، ولكني أستبعد هذا الأمر.

- أنا خائفة، تُسرّ إلي ياباكسا مرتعدة.

فأضمها إلي. فيترقرق شعرها الـمُسبل من حولها ويغطي نحرها الفتّان.

- أنا هنا! أقول مُنبّهاً.

وأبذل كلّ ما في وسعي لأكون هنا بعض الشيء!

*

* *

الثامنة مساءً. وباريس تتوهج بكلِّ أضواء النيون.

تدخل ياباكسا برفقة الفتى الذي أنا هو، الى المطعم الالاباني عنـد ساحـة بيريـر. إنّه مطعم نموذجي. يرتدي النادلُ فيه الزيّ الوطني الالابـاني: بلوزة مقـوّرة من جلدِ النمـر، وجزمة خاصة

بمنظفي المجارير ذات مهماز فضي، بنطال قصير مخطط، وعقد من النوغا حول الرقبة. وقد زيّنوا شعورهم بريشة نسر الكندور، (باستثناء واحد منهم لأنه أصلع فألصق الريشة بواسطة معجون لاصق). أما الجدران فقد كُسيت بجداريات من الرسوم. فالجدار المواجه للباب يحمل صورة جبل هولالها المكسوّ بالثلوج (إن أعلى قمّة في الابانيا يبلغ ارتفاعها ٨٨ سنتمتراً) أما الجدار الأيمن فزيّن بصورة قطيع من حيوانات الكورناشاوسوره، تلك الحيوانات المخبليّة التي اشتهرت بها الابانيا. الجدار الأيسر كُسي بلوحة عملاقة تمثل معركة شوتوي والتي هزم الألابانيون خلالها جحافل كليستير الثاني الملقّب بالخرّاء الأكبر. أما الجدار النصفي الفاصل بين ركنين من المطعم فقد كرّس لاحتفال تتويج بوغنازال ـ الأوحد، ملك الابانيا السابق (والأوحد). والجميع يعلم أن مُلكه الذي بدأ في ٣١ كانون الثاني/يناير عام ١٩٠٤، قد انتهى في أوّل شباط/فبراير من العام نفسه بعد أن أصدر العاهلُ سلسلةً من المراسيم الملكية التي جعلت استخدام الأوراق الصحيّة إجبارياً في المراحيض العامة، وأعادت تقليد استخدام قاطع ـ السيجار، كما حظرت بيع أحزمة التورّم الفتقي بالمفرق، وسمحت باستخدام أرياش الحكة في صالات السينما. وتمثل الجدارية بوغنازال ـ الأوحد واقفاً في عربته المكشوفة وشاهراً بدلَ السيف جهازاً لإبادة الذباب. وفوق الرسم يافطة كتبت حروفها بزيت كبد سمكة المورة وتحتوي الشعار التالي: «Dhan Makhuloth Cithunanvenpâ Jlarmé» مما يعني، كما أدركت عقولكم النبيهة ولا بدّ: «النصر أو الموت».

يسوقنا خادم التشريفات الى طاولتنا المنزوية. وتقوم ياباكسا

يطلب الطعام. أقول لها أن تنتقي ما يجمع الكم والنوع في وقتٍ معاً، فتطلب ما يُشكل مأدبة فاخرة: طبق ضفادع بمرق التنّوب؛ سُحنة المزمار بمرق الأرملة كليتو؛ مشويّ الجلودِ قطعاً والبانبيش ملباباً، وزجاجة كوكا سودا، وهو نبيذ محلّي تعبئة نيكولها.

أنهمكُ بالتهام الطعام وفي الوقت نفسه أداعب بساقي ساق رفيقتي. وبما أني مُتعدّد المواهب والرشاقات، لم يَحُلْ لهوي هذا دون تفحّص أركان المكان. روّاده أناس هادئون.

ـ الا تعرفين أحداً هنا؟ أسأل.

ـ لا، تؤكد ياباكسا بعد أن تلقي نظرةً متمعنة من حولها، لا أعرف أحداً على الإطلاق.

إنّه حزين بعض الشيء، عزيزكم سان ـ أ، يا جميلاتي. ويقول في سرّه إن الأمر يراوح في مكانه، وأنه لا رابط فيه، ومعقد وأبله، وأن كلّ هذا لا يفضي به الى شيء، وإنّ الشموع مطفأة والعجلات صدئة منذ البداية وأنّ عقلية هؤلاء الألابانيين الذين لا يتوانون عن الإيقاع بالمرء في مكيدة الأب فرنسوا، تبدو له مُستغلقة، وأنه قد يكون من الأفضل أن يذهب الى السينما الى أحد أفلام رعاة البقر بالألوان الطبيعيّة، فعلى الأقل تكون المسدسات فيها محشوة بالذخيرة البيضاء!

لم أحظ من العشاء بمرادي. الطعام ليس رديئاً، ولكني أفضّل الدجاج بالنبيذ وشرائح لحم البقر روسّيني على هذه المآكل البربريّة. ولذلك أسارع الى طلب الحساب. وألاحظ أنهم أفرطوا في حساب المجموع كما أفرطوا في بذلِ ملحِ الطعام الأمر الذي لا يعدّل شيئاً من مزاجي. ولكن، في آخر الأمر، لا تزال لدي الإمكانيات

(الحراريّة) لدعوة يباكسا الى مكانٍ مزوّد بالمياه الساخنة لأقلّد لها الفصل الثالث من مسرحية آدادا وهي أوبرا من نوعٍ خاص. عند ركن الملابس، تستأذن الفتاة لدقائق رغبةً منها في إصلاح زينتها. وتتوارى في المراحيض. أرمقُ المستخدمة التي تقف قرب مشاجب المعاطف إلّا أنها لا تستحق نظرة أعور. إنها من مخلّفات عصر فائت وتبدو بلطفٍ لسعةِ يعسوب. ولقتل الوقت أدنو من اللوحة الكبيرة المثبتة فوق الجدار المحاذي أرى قصاصات من الورق مثبتة على اللوحة وقد اكتست بكتابات مختلفة تتراوح من الرديء الى الأردأ. إنها إعلانات خاصة بالجالية الالابانية. عروض لبيع شقق وقطع أثاث ومنازل ريفية وسيّارات بالإضافة الى عروض عمل. ألقي نظرةً عابرة على مضمون الاعلانات تبدو لي اللوحة كأنها واجهة وكالة لبيع الشقق السكنية وتأجيرها. وقد أرفقت ببعضها صور للبيوت المعنيـة أو للسيّـارات المعـروضـة للبيـع. وإذ أهمّ بإغفال بقية الإعلانات، يتشبّثُ نظر الكوميسير سان أنطونيو الثاقب بقصاصة تبدو أكبر حجماً من سواها وكتبت سطورها بواسطة الآلة الكاتبة بلونين. أتعلمون ماذا قرأت فيها؟ تشبثوا جيّداً، هناك مزالق وعرة!

«ممرّضة وسائق. الخبرة ضرورية. التقدّم الى مبنى القنصلية العامة. الرجاء الاتصال على الرقم ٩٦٧٠٥٣٢».

أكاد لا أصدّق عينيّ (الوطنيتين).

ـ أهو إعلان جديد؟ أسأل الآنسة حارسة الملابس.

وتنظرُ مُرقّمة المعاطف الى حيث تشير سبّابة سان أنطونيو.

ـ لقد وضعته بعد الظهر، تقول:

وعلى الأثر تتغاضى عن وجودي لتردّ الى أحد الزبائن سترته.

أسـارع الى تدوين رقم الهـاتف. ولا بدّ أنه من أرقام احدى الضواحي الغربية في باريس.

أشكر شفيع رجال الشرطة لأنّه ألهمني قراءة هذه الاعلانات. لم أهـدر وقتي بمجيئي إلى هذا المكان. وأشعر بالراحة لمثل هذا اليقـين. أرمقُ ساعتي فتشـير الى العـاشرة. لقد أطالت ياباكسا غيبتهـا. فقد دخلت المراحيض منذ أكثر من عشر دقائق. أتمشى قليلاً قبالة حارسة الملابس ذات الشاربين التي بدت قلقةً مثلي.

ـ هلاّ ذهبت للتثبت من أنها هناك؟ أسأل.

فتذهب. ثوان معدودة. فتعودُ حارسة المبنى وقد ازدادت قلقاً.

ـ لقد أقفلت على نفسـها في حجرة المرحاض ولا يبدر منها أي جواب، تقول، أرجو أن لا تكون أصيبت بمكروه.

أهرع الى المرحاض وقبل أن أكسر الباب أنادي:

ـ ياباكسا، يا حبيبتي!

فيجيبني الصمت الأبكم. ودون تردّد أندفعُ بكتفي وأخلع قفل الباب. اللعنة! أقول على طريقة روايات القرن الماضي: أرى رفيقة كنَبَتي (لا سريري) ممدّدة على أرضِ دورة المياه. شاحبة، أنفها بارد وعيناها مغمضتان. أدسّ يدي تحت صدريتها لأتثبّت من أن الرفيق طق ـ طق لا يزال يخفق. واحسرتاه! واحسرتاه! واحسرتاه، لقـد أوقفته الأعطال. الفتاة فارقت الحياة. ربّما تعرّضت لحادث طارىء. أتفحّصها على عجل فلا أجد أي أثر قد يثير الشبهات. لقد انطفأت بهدوء، من تلقائها.

كم أعجب لسرعة بديهة العاملين هنا وخفّة حركتهم. إذ يأتي خادمان ويحملان ياباكسا وينقلانها الى الحجرة الخاصة في مؤخر المطعم. ويُستدعى طبيب من الجوار. فيحضر الى المكان ويؤكد الوفاة معلناً أن الفتاة المسكينة قد قضت بالسكتة القلبية. وينصحنا بنقلها خفية الى حيث تقيم لكي نجنب صاحب المطعم مضايقات الإجراءات القانونية. يضعونها في سيّارتي وأنطلق في اتجاه المشرحة. أحسب أن عملية التشريح ضرورية.

فما رأيكم أنتم؟

الفصل الثاني عشر

يا لها من نزهةٍ ليليّة، أليس كذلك؟

جثة باباكسا الفاتنة ترتجّ على مسند المقعد، وتقع أحياناً على كتفي. فأضطرّ الى إزاحتها بمرفقي. كابوس حقيقي. أخيراً أصل الى المشرحة حيث أسلّم جثة رفيقتي وأتصل بالطبيب الشرعي طالباً منه أن يفحصها على جناح السرعة. فقد تكون السكتة القلبيّة هي سبب الوفاة، إلا أنني أرتاب بالأمر.

- ستبلّغني نتائج التشريح بالهاتف، سأكون في مكتبي، يا دكتور، أقول.

أغادر المكان الواجمَ بكثيرٍ من الإحباط وأدلفُ الى أوّل حانة أصادفها حيث أكرع كأس فودكا مزدوجة. لم يكتب لهذه الفتاة أن تشهد نهايةَ النهار. لقد انتهت إجازتها. وها هي الآن تدافعُ عن نفسها في حضور الملائكة. أرجو أن لا تعاقب بشدّة على خطاياها: فقد كانت تُجيد ارتكابها!

أحتسي كأساً مزدوجة أخرى من الفودكا، ولكنّ الشراب لا يشدّ

من أزري، فثمة لحظات لا تنفع فيها أشدّ أنواع المسكرات في أن تمنحك النسيان.

*

* *

- إذاً، يمكن القول إنّك وضعت نفسك في موقفٍ حرج! يستنتج العجوز.

يشبك أصابع يديه فوق الورق النشاف، ويُمعن النظر في أظافره ويزفر قائلاً:

- إننا نجري تحريّاتنا على حافة هاوية، ويستحيل أن نتقدّم خطوةً واحدة.

- ماذا عن قتلى الليلة المنصرمة؟ أسأل.

- طُلبَ منّا أن نختم التحقيق بتقرير واقع السرقة. فعلة لصوص بوغتوا وهم يقترفون جريمتهم.

- ومن طلب منك أن تقرّر ذلك؟

- القنصل العام. لقد اتصل هاتفياً هذا الصباح.

- دون أن يقدّم لك أي تفسير؟

- إنه يعلم جيّداً أن السلك الدبلوماسي - في بلادنا - يتمتع بكلّ الامتيازات الممكنة، ولذلك ليس مُرغماً على تقديم أي تفسير.

- ولكن هذه الامتيازات لا تشمل اطلاق النار على المرضى في المستشفيات، وعلى الفتيات في بيوتهم، وعلى رجال الشرطة أثناء الخدمة، كما لا تشمل على رمي الزجّاجين - متنكرين أم لا - من النوافذ! أقول ساخطاً.

فصدّني الحيزبون بحركةٍ من يده.

- بالطبع لا، يقرّ الحليقُ، ولكنّ لُبَّ المسألة نجده في القنصلية. والحال أن القنصلية منطقة محرّمة.

- وماذا لو تسللتُ الى هذه المنطقة المحرّمة، أيها الرئيس؟

يهزّ رأسه بعنف.

- لا أريدك أن تفعل، يكفي ما جرى الليلة المنصرمة! لقد قتل بيروربيه إثنين من موظفي القنصلية، هذا يكفي!

- أجيز لنفسي أن اذكّر بأنّ هذين الموظفين كانا يريدان قتلي. قد لا يكون الفرقُ كبيراً، ولكنّي أصرّ على التذكير بالواقعة.

- لقد تسللت الى حرم القنصلية بطريقة غير قانونية! يعترض الأصلع.

وأحسب أنّها بداية المناكفة المعتادة، بيني وبينه.

- أترى أنّه من الأفضل أن نتغاضى عن القضية برمتها؟

يقطّب قائلاً:

- وهل تلفّظتُ بكلامٍ مماثل؟ لا، يا عزيزي، إنما أسألك أن تعمل في الخفاء وأن تحترم قواعد اللعبة وتلتزمها. وقواعد اللعبة الصحيحة هي أن تتجاهل أمر القنصلية.

- القنصلية، ربّما، ولكن ليس منزل القنصل الخاص.

- ماذا تقصد؟

- لقد استعلمت حول الأمر بقراءة دليل الهاتف. والحقّ يقال

إنـهـا قراءة شاقّـة، يا سيّـدي المـديـر. القـنـصـل يقيم في رويل ـ ماليزون، شأنه شأن الأوّل.

ـ أي أوّل؟

ـ القنصل الأوّل، أي بونابرت!

لطالما اغتاظ العجوز من التلميحات، وخصوصاً في اللحظات الحرجة.

ولا بدّ أن دعابتي من صنع «ديجون»(*) لأنّها صعدت توّاً الى منخريه.

ـ أوه! أرجوك يا عزيزي، دعكَ من الثوريات...

أصرّ على الابتسام، فذلك يحول دون رغبتي في أن أغسل شعر رأسه (المفقود) بمحتوى محبرته.

ـ كنت أقول إذاً، يا حضرة المدير، إن قنصل الابانيا يُقيم في رويل ـ ماليزون. وتشاءُ المصادفة أن الرجل يحتاج الى موظفين. ممرضة وسائق. ولطالما أحببتُ أن أعرف عن كثب أناس الدارة وخصوصاً أناس الدوّارة، أردفُ قائلاً رغبةً في مضاعفة حَنَقه. وكم أود أن تزودني غداً بأوراق ثبوتية وشهادات خبرة مزوّرة، لأختبر حسنَ طالعي...

تنفرج أساريره.

ـ أعتقد أنها ليست بالفكرة الغبيّة، يقول. بالفعل، قد تتمكّن...

(*) ديجون مدينة في جنوب فرنسا، اشتهرت بصناعة الخردل. والقول الفرنسي الشهير أن غاز الخردل يصعد توّاً الى الأنف، تعبيراً عن الاستياء أو الامتعاض.

يصدح جرس هاتفه المدوزن فيرفع السماعة.

ـ المخابرة لك، يغمغم قائلاً وقد أعطاني السمّاعة: الطبيب الشرعي.

يخبـرني الطبيب أنّه لم يجد ما يثير الريبة خلال تشريح جثة ياباكسا المسكينة. ويبدو، بالفعل، أنها قضت بميتة طبيعية، الأمر الذي يكذّب كلّ ظنوني.

إلّا أن نتيجة التشريح النهائية والرسميّة لن تكون حاسمة قبل إجـراء بعض الفحـوصــات المخبرية الأخرى. فأشكر النُطاسيّ لحصافته وأستأذن الريّس بالمغادرة.

فيُجيزنــي.

قبـل أن أركن الى مخـدعي، أقصـدُ الحانة المقابلة لاحتساء نصف ليتر من البيرة. أجد بيرو يخطبُ في جمع تحلّق حوله بأطناب. ألاحظ قطعاً من اللاصق المشمّع تكسو جبينه، أنفه المهشّم، وعينه المـزنّرة بالسواد، أثر خياطة جرّاح على أحد حاجبيه، أمّا ذراعه فلفّت بوشاح رُبط بعنقه. وبيرو يروي تفاصيل «الحادثة».

ـ ترتمي الحيزبون تحت عجلات الباص. كاد يدهسها ويطحن عظامهـا. أمــا أنــا فلا أتردّد لثانية واحدة: أندفع نحوها وأطوق خصرها وأدفعها نحو الرصيف، وبعد ذلك لا يتسنى لي أن أتحاشى الباص فيصدمني. ظننتُ لوهلةٍ أن رأسي قد تقلّع. ثمّ احتشد المارة، حاولت أن أقاوم، لكنهم رفعوني على الأكتاف كبطل. ولن تصدّقوا إذا قلت لكم إن عجوزاً يحملُ زرّ المحاربين القدامى طلب بطاقتين لكي يقوم بالإجراءات اللازمة لمنحي ميدالية الإنقاذ.

تسود همهمة إعجاب بمثل هذا العمل البطولي. وأرى أنه الوقت المناسب لأدلو بدلوي وبالفم الملآن فأخاطبُ الساذج الذي لم يرَ شيئاً ويروي الترهات دون قصد:

ـ إذاً، يا بيرو، أقول راثياً لحاله، هل هدأت زوجتك أخيراً؟ لقد صنعت بك صنيع الأعداء، أيا أرنبي المسكين. أتعلم أنّ ما حلّ بك هو سببٌ شرعيّ للطلاق. فإذا عقدت العزم على ذلك، اعتبرني أوّل الشهود.

ـ ما هذا الهراء الذي ترويه! غمغم الدنيء وهو يرمقني بنظراتٍ كئيبة.

ويروح المتفرّجون يتساءلون حول حقيقة الأمر.

ـ إن زوجته الغُولة ستقتله ذات يوم، تنبأت قائلاً بنبرة مأساوية. فهو ضعيف حيالها، هذا البدين البائس!

تسود قهقهة عامّة. ويكيلُ الندماء بحراً من التعليقات الساخرة حول صِدام بدانته والحرم المصون. فيبلغ منه الغيظ مبلغاً يجعلُ المهان في كبريائه يَشقُّ رخامَ الطاولة بضربةٍ من قبضته.

ـ لا أسمح على الإطلاق أن توصف السيّدة بيروربيه بالغولة! يُرعدُ حضرته. وإذا طرأ أي سوء تفاهم مع زوجتي، فهذا لا يعني أحداً سواي. ففي كلِّ الزيجات أسباب للخلافات البسيطة، ومن شأن ذلك أن يُلهبَ المشاعر ويجدّدها!

يكرع قدحه وينهض.

ـ وإذا كنتم تحسبون أنني سأدفع ثمن كؤوسكم فلا بدّ أنكم حالمون!

الحق به على بُعدِ خمسين متراً من الحانة حيث كان يسيرُ متثاقلاً عارجاً مثل حمار عجوز.

ـ اسمع أيّها البدين:

ـ تبّاً لك! فالحاذقون الذين يريدون جعل وجهي مثل مؤخّرة السعدان لا يستحقون رفقتي! سواء كانوا من رؤسائي في التراتب المهني أم لا، سيّان عندي!

صرفت عشر دقائق وثلاث كؤوس من السنزانو في الحانة التالية قبل أن أفلح في استرضائه.

وعندما استكانت ثورة غضبه، أخيراً، صار بامكاني التحدّث اليه في أمور العمل.

ـ اسمعني جيّداً، أيها الخُرجُ العتيق، أقول له، غداً سنشنّ هجوماً شاملاً على القنصلية.

ـ هل اندلعت الحرب؟

ـ لا، ليس بعد. ولكن إذا استطعت أن تكون بمستوى المسؤولية، سنتمكن من تلافي نشوب الحرب. وهاكَ ما سنفعل.

وأشرح له خُطتي.

أشرح خطتي لبيرو وليس لكم أنتم، لأنّكم، في آخر الأمر، لستم بمستوى المسؤولية. وثمة أمسيات لا أطيقُ فيها أمثالكم!

الفصل الثالث عشر

في صبيحة اليوم التالي، أدلفُ الى المكتب وقد ارتديت زيّاً خاصاً. طقم رمادي غامق، عتيقٌ لكنّه نظيف، قميص أبيض وربطة عنق سوداء، وحذاء مُقلَّع لكنه ملمّع باتقان. لقد أنبأتني المرأة بالخبر اليقين: كلُّ ما في مظهري يدل على مهنتي كسائقٍ خاص لعليّة القوم ولكنْ في ثيابه المدنية. وقد دفعني حرصي على الدقة الى اعتمار بيريه جُلديّة، ذات إبريم مُشقّق.

يُبدي العجوز إذ يراني رضاً ظاهراً في عينيه الملتمعتين.

ـ هاكَ الأوراق وشهادات الخبرة. إذ قد يتصل جماعة القنصلية بمخدوميك السابقين: وفي هذه الحال سيحصلون على معلوماتٍ مُرضية بشأنك.

قبل أن أندفع كالقطار في اتجاه رويل ـ مالميزون أمرُّ بمنزل موربيون. لم يَعُد بعد الى الدار (كما يقول أهل السافوا).

قططه الجائعة البائسة تهرعُ للمواء خلف الباب، ما يُثير شفقتي عليها، فأطلب من حاجبة المبنى أن تهتم بها في انتظار العودة (الميمونة ولكن الاشكالية) لأستاذي العجوز.

أقودُ سيّارتي الجكوار طيراناً حتى محطة رويل. فأركنها حيث

ينبغي وأستقل سيارة أجرة لتقودني الى دارة تقع في جوار قصر فيفين، حيث يقيمُ سعادة القنصل. المنزلُ عادي من طراز إيل دو فرانس أشبه بكعكة بالكريما، ويُدعى «جنبة الريّاط»(*)، تحيط به حديقة واسعة لا تقلّ مساحتها عن هكتارين معظمها أرضٌ بور. وما إن أقرع جرس البوّابة الخارجية حتّى يهرع إليّ كلبان ألمانيان لا يُخفيان أنيابهما المسنّنة. وعبثاً يجفّ حلقي في مناداتهما بألطف الأسماء: ميدور، بوبي، قطتي الوادعة وحتى أرنبي الصغير؛ يمكث الكلبان على تربّصهما واستعدائهما الظاهر.

رجلٌ حليق الرأس له سحنةُ مصارع مثالية يتقدّم نحوي بحركةٍ آلية بالغة الدقّة.

أحسبُ أنه أحد أقرباء الغوريلّا الذي قُتل في القنصلية في تلك الليلة حتى ولو كانت درجة القُربى لا تتعدّى صديق الأب.

ـ ماذا تريد؟ يسألني بجفاء.

أبلّل شفتي بطرف لساني قبل أن أجيبه مُتصنّعاً رباطة الجأش:

ـ لقد جئتُ للسؤال عن وظيفة السائق.

يرمقني بنظراتٍ فاحصة من أعلى رأسي حتّى قدميّ ومن الكتف الى الكتف وفي الاتجاه المعاكس. ثمّ تبدر منه حركة استياء ويفتح البوّابة مخاطباً الكلبين بكلمات لا أفهمها. فقد تلفظ بعبارات ألابانية، إذ يبدو أنّ هذين الكلبين الظريفين لا يتكلمان الفرنسيّة.

(*) هو نوع من النبات.

نسلكُ ممرّاً تكسوه الأعشاب البريّة بين صفّين من الأشجار. وإذا بالمنزل يُطالعنا وسط جُنينة فسيحة. وبرغم أن النهار لا يزال في أوّله يبدو المنظر وكأنّه مضاء بأشعّةٍ قمرية خافتة ومردّ هذا الانطباع، في ظنّي، شحوب لونِ جدرانه وسطحه الأردواز المائل الى الاخضرار.

يُدخلني الحارسُ الى ردهة عتيقة بعض الشيء حيث أنتظر فيما يصعدُ درجاً من الخشب. أمكث للحظات أتنشّق الرائحة العطنة التي تملأ المكان (كما يقال في مصنع سيمكا). فتتناهى إليّ أصداء تسجيل لموسيقى موزار. موزار، إنها موسيقى جميلة.

أسمع وقع أقدام فألتفت، فيطالعني وجهُ شاب نحيل وشاحب، ضخم الأنف ويرتدي ملابسَ سوداء. أحسَبُ أنّه، بلا ريب، سكرتير القنصل الذي رأيته بالنظارة من نافذةِ بيتِ موربيون.

يرمقني بنظراتٍ خالية من اللطف (ذلك أن اللطفَ متعذِّرٌ معه).

ـ هل أنت سائق محترف؟ يسألني بجفاء.

ـ أجل يا سيّدي. إذا أردت أن تطلع على شهادات الخبرة التي أحملها، تفضّل. لقد عملت طوال السنوات الست المنصرمة كسائقٍ خاص لكونت دو لا موت بورّيه.

ـ ولماذا تخلّيت عن العمل هناك؟

ـ هو الذي تخلّى عنّا، يا سيّد، أجيبه بشيء من الأسى. لقد توفي حضرة الكونت خلال الأسبوع المنصرم.

يدقّق في الأوراق التي تدبرها لي الكهلُ هذا الصباح.

ـ وكيف علمت أننا نبحث عن سائق؟

ـ لقد أبلغني بذلك أحد أصدقائي الذي يعمل في مطعم الاباني عند ساحة بيرير.

ـ لقد كُتب في الاعلان أنّ على الراغبين أن يتّصلوا هاتفياً لا أن يتقدّموا شخصياً.

ـ أعلم يا سيّدي، ولكني ارتأيت أنّ المقابلة الشخصيّة أفضل بكثير، لذلك تقدّمت شخصياً دون أن أتصل بكم أوّلاً.

يواصل تحديقه بي. وأرى في عينيه مقداراً من الرقّة يُعادل الرقّة التي قد ألمحها في عينيّ قطّ ربط ذنبه الى جرس.

ـ أتسمح لي بها لبعض الوقت؟ يقولُ ملوّحاً بأوراقي.

ثمّ يغادر. لقد كان الرئيسُ محقاً في التزام تدابير الحيطة. فسيعمد هذا المأفون فعلاً الى الاتصال بمخدومي السابقين. وبمعنى ما إنها علامة جيّدة. فهذا يعني أنّه يوافق مبدئياً على استخدامي.

وبالفعل ها هو يعود بعد أن تغيّب لمدة ربع ساعة، ويبلغني ردّه الايجابي. ثمّ يشرح لي شروط العمل وها أنذا أصبحتُ موظفاً لدى الألابانيين. وسأبدأ في فترة ما بعد الظهر. يبدو الأمر أسهل ما يكون، أليس كذلك؟

*

* *

آه، كم يبدو وسيماً عزيزكم سان ـ أ. ببدلة السائق الباذخة، يا أحبّائي! فأنا لا أجدُ صعوبةً في التنكر بأي زيّ كما تعلمون. وقد حدث لي أن تنكّرت في زيّ عامل وقسّ وجزّار، وانتحلت شخصية

أوسيـدار وشخصيّـة فحّام ورجل اطفاء وكهل ثمانيني ومصاب بالسفلس، وشخصيـة فتـاة عريقة النسب، وشخصيّة مصّاصة ومجنّـد وسنسكـريتي ومـظلّة وجنرال وفرو وهرّ مجاري ومنظف مداخن وبطريق ولويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر والسادس عشر والسـابـع عشر والثـامن عشر والتـاسـع عشر والعشرين. وشخصيـة احـدى قمم ألونمسـون، وشخصيـة محاسب وبائع مرطّبات وعربة يد وزجاج ومشاكس وحوذي وكاردينال وناظر محطة وزوج ملكـة انكلترا وياباني، ومادة مطاطة، ونبيل حزين وحاخام وروبن هود وداني روبن وروبنسون وثوب وصنبور وروب غرييه(*) ورجـل آلي ومقدام ومظلّي، ولكنها المرّة الأولى التي أتنكر فيها في شخـصيـة سائق. إن بزة الرقيق هذه تبـدو كأنهـا صنعت لي خصيصاً. الأزرار مُلـمّعة، الخياطة متقنة، السترة على المَقاس والكسكيت على أحسن ما يكون، وأستطيع حين أرتديها أن أكون موديلاً مثالياً لمجلة مختصّة بالأزياء عبر العصور، بدءاً بزي آدم وصـولاً الى بدلة الاحتفـالات الرسميـة والسترة المخططة وقبّعة الأرياش التي تزيّن الاستعراضات العسكرية.

يبدو لي الرجلُ الذي يستقبلني رَجُلَ ثقةٍ فأطمئن الى رقّةِ رموشه.

ـ أنا السيد وادونك هيثوردو، السكرتير الأوّل لسعادة القنصل، يقـول معـرّفـاً بنفسه. وستبدأ بتجهيز احدى السيّارات: سيّارة البيجو، لأنّك ستذهب عصر هذا اليوم الى النورماندي.

فأنحني احتراماً. ويشيرُ الى المرآب فأنصرفُ الى مشاغلي الجديدة.

(*) احد الروائيين الفرنسيين المعاصرين؟ رائد تيّار «الرواية الجديدة».

يحتـوي المـرآب على ثلاث سيّارات. سيّارة قديمة طراز بنتلي باذخة مثل حفل استقبال في بكنغهام بالاس، وسيارة بيجو ٤٠٤ رمادية وسيّارة دوفين سوداء. فأقترب من الـ ٤٠٤ إذاً لا أعرف تماماً ماذا يعني وادونك هيثودور بـ «تجهيزها». فهي جاهزة على أربع عجلات وعبّئت بالكميات اللازمة من البنزين والزيت. وكلّ ما أستطيعه هو أن ألمع غطاءها لكي تستعيد لمعانها الغابر.

أقودها الى خارج المرآب وأدنو بها من المنزل حيث عثرتُ على صنبور ماء خلف المبنى. وأنهمك بتلميع العربة بكلٍّ ما أوتيتُ من نشاط. ذلك أني أشعر بأن أحداً ما يراقبني فأبذلُ ما في وسعي لألعب دوري باتقـان. يبـدو المنزلُ غارقاً في سكينته المبهجة مثل محاضرة للأب دوبانلو حول حياة الرهبان.

يسودها صمت شبه مُطبق. إذ يبدو لي أنّ هذا المنزل الواسع لا تسكنه إلّا قلّة قليلة من الأشخاص. وعندما أرى أن سيّارتي أصبحت بلمعان الحجارة الكريمة التي ترصع تاج ملكة انكلترا، أعيدهـا الى المـرآب. وبـين الحـين والآخـر يقترب مني الكلبان ويتشمّمان ثيابي على نحوٍ يُثير فيّ القلق.

ليس لأني خائف أو أي شيء من هذا القبيل، ولكنّ الحقّ يقال: كم كنت أودّ أن أشاهد فيلماً للوريل وهاردي بدلَ كل هذا الهراء!

أعـودُ أدراجي الى المنزل بخطواتٍ رشيقة، رغبةً مني في زيارة أرجـائه قليلاً، أوليس هذا سبب مجيئي الى هنا؟ وفيما أتقدّمُ في اتجاهه ألقي نظرة عاجلة على واجهة بنائه البائسة. وألمحُ طيفاً خلفَ احدى النوافذ في الطبقة الأولى. إنها امرأة، أزاحت الستارة قليلاً ومكثت ترمقني بنظراتٍ فاحصة. وكلّما اقتربت من المنزل تبدّى لي

أنهـا امـرأة رائعة الجمال. انها شقراء، شابة متناسقة الملامح. فأنحني في تحيةٍ اجلالٍ. وأدخلُ الى المنزل من باب العموم.

المـطبخ هو أكثر حجرات المنزل خراباً. إذ يبدو طلاء جدرانه مقشراً، وفي وسطه قدر هائل في شكل كروي عُلّق بواسطة سلسلة مثبتة في السقف. أما فرن الغاز فقد كساه الصدأ. الحقيقة أن القنصل لا يُكبّد جيوبه الكثيرَ لإصلاح ما تهدّم. أمام فرن الغاز تقف فتاة جميلة ذات استدارات باذخَة طراز راقصات التعرّي. انهـا منهمكة بتسخين رضّاعة حليب في وعاء من الماء الساخن. فأستنتج على الفور أنه يوجد طفلٌ رضيع بين سكان هذا المنزل.

لم أرَ من الفتاة في البداية سوى ظهرها وما يتبع. ولا أشعر بأني على عجلةٍ من أمري قبل أن تستدير، ذلك أنّ ناحية القفا منها لا تخلو على الإطلاق مما يُثير ويمتع النظر. الخصر شيق والردفان على استـدارةٍ هي من بين أجمل ما رأيت، أما ساقاها ففيهما ما قد يُضرم صدر تمثال خصّي بالحسد. ثمّ تستدير فجأة فيُسقط في يدي. إذ أرى أنّ الفتـاة صهبـاء وتلتمع حدقتاها الخضراوان بنمشٍ مُذهّب فيما تتألق بشرة وجهها بنمشٍ داكن. وما إن تقع عيناك على شفتيها حتى تحسبُ أن تيّاراً قد مسّ أوصالك. ولكي تتمكن من الإفلات يلزمك مخل وجرّار ودزينة قوارير من أوكسيجين اللِحام.

تطالعني بابتسامة. فتبدو أسنانها البيضاء منشدةً لألق الحياة والجمال والحب بكلّ ما يحيط بها ويكتنفها!

ـ صباح الخير، أقول مغرّداً، ذلك أني، كما تعلمون جيّداً، أمتلك دائماً القول المناسبَ لبدء المحادثة.

ـ صباح الخير، تجيبُ على الفور.

ـ أنا السائق الجديد، أقول معرّفاً بنفسي: انطوان سيمون!

ـ وأنا أدعى كلير بابيه، تجيبُ الطفلة الصهباء، الممرضة الجديدة.

ـ وزبونك كم يبلغ من العمر؟

ـ ستة أشهر. انه جميل الطلعة وفي صحّةٍ ممتازة. أما رأيته بعد؟

ـ لقد وصلت لتوي.

ـ انا أيضاً...

تلمس الرضّاعة للتثبّت من درجة سخونتها. ويبدو أنها لم تبلغ بعد السخونة المطلوبة لأنها أعادتها الى وعاء المياه الغالية.

ـ إنه منزل غريب، تتمتم قائلة. يكاد يكون خالياً من السكان.

ـ أحقاً؟

ـ أحسبُ أنه باستثناء الطفل ليس هناك سوى رجلين آخرين في الوقت الحاضر.

ـ أحقاً؟

ـ حقاً!

ـ أستطيع أن أؤكّد لك وجود شخص آخر: لقد شاهدتها خلف احدى نوافذ الطبقة الأولى: إنها امرأة شقراء تبدو عليها سماتُ الكآبة.

ـ ألا يُعقل أن تكون أمّ الطفل؟

ـ ربّما.

ـ هل قابلت القنصل؟ تسأل.

ـ لا، وأنت؟

ـ لم أره بعد.

وتحمـل الرضّاعة وتغادرني بابتسامة عريضة محمّلة بالوعود كبيانٍ انتخابي.

أمكثُ في المطبخ وحيداً. أفتح الخزائن وأجد فيها كمية كبيرة من المؤن. يبدو أن أهل البيت يُعانون من نقصٍ في عودِ العاملين. لم أرَ حتى الآن طاهية أو مدبّرة منزل أو خادمة.

هنـاك العتعيت الذي فتـح لي البـاب، والسكرتير الشاحب في ملابس الحداد والطفل الرضيع والمرأة الشقراء... بالإضافة الى ممـرّضـة وسائق استقدما للتوّ... والحقيقة، ودون رغبة مني في انتحال أدوار شرلوك(*)، إني أرتاب في الحكاية برمّتها. إذ يبدو لي من المستهجن فعلاً أن يستقدم سائق وممرّضة للعمل في هذا المنزل الخرب الذي ينضح بالرطوبة، دون أن يكون فيه أي مستخدم آخر.

أمكث لحظاتٍ أخرى في المطبخ. ولكني لستُ من طراز أولئك الذين يستوطنون أماكن زياراتهم؛ وفي غضون خمس دقائق اغادره لاستطلاع أرجاءٍ أخرى.

(*) شرلوك هولمز، بطل روايات آرثر كونان دويل البوليسية. (م. ع).

الفصل الرابع عشر

صالة طعام فسيحة كُسيت جدرانها بتلبيسات خشبيّة وخزانة أطباق على الطريقة الفرنسية. ردهة استقبال أكثر اتساعاً أيضاً وقد أعلت أفاريز حيطانها الناتئة في شكلِ هلاليّات، ثمّ غرفة مكتب تفوح منها رائحة الخشب المتعفّن.

هذا كل شيء بالنسبة للطبقة الأرضيّة، فأثاثها عتيق وبشع وبالٍ، بعضُ الكنبات غطيّت بشراشف وبدت مصاريع النوافذ كأنها أقفلت منذ زمن بعيد ولا بدّ أنه بات يصعب فتحها بسبب تراكم الصدأ على أقفالها. لذلك أحسبُ، وحسباني صائبٌ بلا ريب، أن سعادته لا يُقيم الكثير من الاحتفالات الراقصة في داره.

إنه قصر «غراب الغابة النائمة»، والحقُّ يُقال! فالمساكن الشاغرة لها رائحة خاصة. أمّا هذا المسكن فيعبقُ برائحةٍ أكثر نفاذاً: إذ يعبقُ برائحةِ المساكن المهجورة! ويخطر لزائره أن يدعو اليه ثلاث جرّارات بولدوزر لتلعب لعبة الاستغماية في أرجائه.

أعود أدراجي الى ردهة المدخل وأسترق النظر في اتجاه الباب. ما زالت حقيبتي هناك لأن وادونك هيثوردو لم يَقُل لي بعد في أيّة غرفة سأقيم.

ما العمل؟ أأنتظر هنا أم أواصل جولتي الاستكشافية؟

أغامرُ بصعود السلّم. فتبدو لي الطبقة الأولى خاليةً من الروائح المقبضة التي تسود الطبقة الأرضيّة. فالرائحة هنا أقربُ الى روائح الأنس: ومن خلالها يُدرك المرء أنّ أناساً يقيمون فيها. نحيب طفل يتناهى من مكانٍ ما. أنعطف عند الزاوية فألمحُ صديقي الغوريلا جالساً فوق كنبةٍ عتيقة شبه محطّمة. إنّه يقرأ جُرنالاً الابانيا. وما إن يتنبّه الى وجودي يخفض جُرناله ويحدّجني بنظراتٍ مفترسة.

ـ ماذا تريد؟

ـ أن أعمل، أُجيب. لقد أنهيت غسلَ الـ ٤٠٤ وأودّ أن أعرف ماذا أفعل أيضاً.

ـ عُد الى الأسفل، وهناك سيقولون لك ماذا ستفعل.

لماذا يجلس في هذا الرواق، هذا الرجل البارز العضلات؟ أحسَبُ أنّه مكث هنا لمراقبة أحد ما. ولكن مَن؟ الممرضة الجديدة؟ أم الامرأة الشقراء؟

أهبط السلّم على مهل. ويُثير فيّ بكاء الطفل الذي يتردّد في أرجاء هذا المنزل الخرب، مشاعر غريبة. إذ تسودُ المكان أجواء غامضة تدعو الى الإحباط والقلق وتُشيع مَسحةً من الوجوم الخانق...

كم أؤثر التنزّه في حديقة عامّة. فالطقس جميل، عذبٌ ومكفهرّ بعض الشيء. وكأنّ السماء تسيلُ في جفناتٍ هائلة تجرّها نسائم الغرب. أعودُ الفسحة أمام واجهة المبنى حيث نافذة المرأة الشقراء. أرى أنها غادرت مرقبها. وأسمعها تتحدث الى شخصٍ

ما. تتكلّم الألابانية بنبرة انفعال حادّ. ثمّ جلبة باب يُصفَق بقوّة. ويخيم الصمتُ مجدّداً، مُطبقاً مثل مياه راكدة، خدّاعاً ورهيباً!

ولحسن الحظ أنّ كلبر هنا. انّها، على الأقل، زاخرة بالحياة.

يظهر وادونك هيثوردو على العتبة. ويفرقع أصابعه ليشير عليّ بالاقتراب منه.

ـ ستغادر الآن برفقة الممرضة والطفل، يقول.

يسحب من جيبه قصاصة وَرق.

ـ ستقلّ الممرضة والطفل الى هذا العنوان، بعد ذلك بامكانك أن تمضي ليلتك حيث تشاء على أن تكون هنا عصرَ يوم الغد، لنقل عند السابعة مساءً.

فأشكر السيّد على هذه الإجازة القصيرة ولكن الفورية.

ـ أعذرني يا سيّد، أغمغم قائلاً، هلاّ منحتني سلفة مئة فرنك من راتب هذا الشهر، ذلك أني، كما تعلم... هه؟

إنّ مثل هذه التفاصيل التافهة هي التي تجعل الخدعة أشدّ واقعية من الواقع. ولا بدّ أن آخر شكوك وادونك هيثوردو بشأني قد تبدّدت الآن نهائياً. فيخرج محفظته من جيبه ويُعطيني ورقة نقدية من فئة المئة.

ـ شكراً جزيلاً يا سيدي، أقول.

ـ هناك أمر آخر، يقول مقاطعاً. احرص أن ترتدي غداً بزّتك الرسمية الكاملة. فسعادته سيذهب الى حفلِ استقبالٍ رسمي.

فأبادر قائلاً:

ـ سمعاً وطاعة يا سيدي.

ـ حسناً إذاً، إذهب وساعد المرضة.

أعود الى الردهة حيث تنتظرني كلير وقد حملت الطفلَ بين ذراعيها. فأحمل حقيبة المرضة الجميلة وحقيبة الطفل وأقودُ مرافقتي الفاتنة الى السيّارة. وبينما أضع الحقائب في صندوق السيّارة تحت أنظار وادونك الثاقبة، أسمع صراخاً حادّاً مصدره المنزل.

فألتفت في اتجاه مصدر الصوت إلّا أن هيثوردو يهزّ رأسه مبتسماً.

ـ دعك من هذا! يقول لي بصوتٍ مُطَمئن، إنه الراديو، حيث تذاع حلقة من مسلسل بوليسي.

أعترف أن تفسيره هذا يصدر عن مخيّلةٍ بائسة، إلّا أنني أتظاهر بالاقتناع.

وهووب لالا! ها نحن ننطلق. أنظر الى قصاصة الورق التي زوّدني بها السكرتير. وأقرأ: «لو كلو فلوري» في فرنوي سور آفر. فأسلك اتجاه سان جرمان لأصل الى الطريق الفرعية التي تفضي الى الأوتوستراد الغربي. أنظرُ الى كلير خلسةً وقد جلست برفقة الرضيع النحّاب في المقعد الخلفي. وألاحظ أن هذا الأخير لا يحرّك ساكناً.

ـ أهو نائم؟ أسأل.

ـ أجل.

ـ ألا تريدين أن تنتقلي الى المقعد الأمامي؟

ـ ولماذا أفعل؟ تقول كلير بشيءٍ من الدهشة (أو بشيء من تصنّع الدهشة).

ـ لأنني أبغضُ أن أصرف عمري وأنا لا أرى الناسَ إلّا عبر المـرآة الارتـداديّة. بالإضافة الى ما يمثله ذلك من خطر حقيقي بالنسبـة للسائق. فحين تجلسين بقربي لن أضطرّ الى التحديق المتواصل بالمرآة...

وإذ تتجاهل سؤالي، ألحّ عليها بنظرةٍ جانبية أردتها نظرة إغواءٍ من الحرير الطبيعي.

ـ يجب أن تأخذي بعين الاعتبار سلامتك وسلامة الطفل الذي وضع في رعايتك يا كلير.

ـ كفَّ عن هذارك! تقـول بجفاء. كم أبغض الخدم المحظيين الذين يمثلون دور زير النساء.

كأنها تبصق في وجهي، أيها الفتيان. لقد طرقتُ البابَ الخاطىء في تصّرفي مع هذه الفتـاة: إنها متعفّفة، الآنسة حِشمَة! لا تحبّ الثرثرة وليس في نيتها الخلط بين القمح والزؤان.

يا لخيبـة الأمـل. بدعة مثل هذه كم يسيل لها لعابي. فلطالما عشِقتُ البدع المماثلة.

انطلقُ مسرعاً، إذاً، في اتجاه النورماندي. ليست مسقط رأسي ولكنّها، برغم ذلك، منطقة جميلة. صمتها يسقمني. فعندما أكون برفقة فتاة جميلة وتكون ضمن مجالي الحيوي يُصبحُ الأمر أقوى منّي. واشعر برغبةٍ ملحّة في أن اروي لها قصّة الرجل الذي شاهد

الرجل الذي شاهد العظم. وبعد وقتٍ أعاودُ الإلحاح مواربةً (ومتأهباً لتلقي الردّ).

ـ يتراءى لي أننا وقعنا على أناسٍ غريبي الأطوار، أليس كذلك؟ أقول. يبدو لي أنّ الالابانيين ليسوا على خير ما يرام هذا العام.

ـ صحيح، تقرّ الآنسة حريق، من جهتي لستُ نادمة على مغادرة ذلك المنزل المشؤوم.

وتحاول تهدئة المخّاط الذي راح يبدي بعض علامات الضيق. اراقبها في المرآة كيف ترعاه بحركات حاذقة ورقيقة.

كم هو جميل فنّ رعاية الأطفال.

ـ ألم يخطر لك أبداً أن تعملي لحسابك الخاص؟ أسألها.

ـ ماذا تقصد؟

ـ أقصد ألا تراودك الرغبة أحياناً في رعاية طفل من صلبك؟

ـ بلى، أحياناً، تقول كلير.

ـ عندما تتخذين القرار الحاسم بذلك، ليس عليك إلّا أن تشيري علي باصبعك، فمثل هذه الخدمات اختصاصنا، وأنا واثق أننا سويّاً قد نفلح في انتاج ما يُرضي.

وإذ بها تقطّب مجدداً. إذ لا بدّ أنها عثرت على قَيْسها منذ بعض الوقت وها هي تلعب دور العاشقة المخلصة. والإخلاص ليس ميلاً باطنياً كما يُخيّل لمعظم الناس بل هو نزوة عابرة. تكون احداهنّ معرّضة لأي اغواء وما إن تقع على الفتى الملائم حتى تلعب لعبة الحقوق الحصرية! وتحسب أنها أصبحت مرتبطة بعقد وفاء. فلا

يعود بالإمكان مسّ اصبعها الصغيرة ولو بواسطة ملقط الماس! ثمّ ذات صباح يُعاودها الملالُ من هودجها فيستحيل حرزها الحرير الى مركز استقبال وارشاد. ولكنّها بين الفاصلتين تكون قد أفلحت في التمثيل. وصدّقت دعوتها، وراحت تنزّه مفاتنها مثل مقدّساتٍ محرّمة. احذروا اللمس، انها مُلكية أرنست أوفلان! تبّاً لهنّ من فاسقات! هيّا! السوسة في الدماغ. غرامهنّ السينما ويصنعن الأفلام التي تناسب أذواقهنّ! وما إن يُبادر أبلهُ ما الى مغازلتهنّ حتّى يتمنّعن!

ـ هل أنت مخطوبة؟ أسألها.

ـ لا، تجيبني.

ـ هيا أوتزعمين أنّ حياتك مقفرة وتشبه صحراء «غوبي»؟

ـ لديّ صديقة، تقول.

فتنط جوزة عنقي من هولِ المفاجأة! لقد سمعتُ جيّداً، قالت صديقة، في صيغة المؤنث، أليس كذلك أيّها الفتيان؟ أسمعتم ما سمعته؟ هناك خطأ ما. ها أنذا أقع على واحدةٍ من أنصار التحرّر الجنسي الآنسة تكشف أوراقها كاملة! وأحسَبُ، على هذه الحال، انها لن تحصل على مولودها الخاص بين ليلةٍ وضحاها (إذا جاز لي القول). وماذا لو كانت كاذبة، انّه صنيع النساء المثالي! صبيّ في الخامسة والسبعين لا يتمالك نفسه حيال ما أسرّت به! فتاة جميلة مثل كلير، بالصورة البارزة الملوّنة، وبعطر روشا وشرفة مطلّة على البحر، ثمّ يتضح أنها الخسارة الكبرى للإنسانية المعذّبة: لا بد أن في الأمر ما يدفع الى الجنون. ولا يرغب واحدنا عندها إلّا أن يحمل عصا الحجّ قاصداً عذراء لورد ليضيء شمعةً بمثابة نخبها! ولكن

للأسف الشديد ما عاد المرء يعثر على عصي الحجّاج إلا في أقاصي أرياف فرنسا.

ـ لقد خاب ظني، أقول دون قصدٍ متمتماً.

إلّا أن كلامي هذا لا يستثير فيها أي انفعال.

ـ حقـاً؟

ـ ربّة للجمال مثلك، كيف تغامرُ بأن يَشملها الـحُرمُ الكنسي، إنّه أمرٌ مخيّب. ألم تعرفي رجالاً من قبل؟

ـ بلى، ولكن التجربة لم تكن مُقنعة..

ـ ذلك أنّك وقعت على الرجلِ غير المناسب. ولكن دعينا من هذا كلّه، ففي آخر الأمر لكلٍّ منا ذوقه ورغباته.

*

* *

«لو كلو فلوري» هو عبارة عن نزلٍ نورماندي ظريف، يقع وسط حديقة فسيحة على ضفاف «الآرف». وتُشرف على الدارة عانستان مهفهفتان تستقبلان وفُودَنا بالصراخ والتعبير عن الإعجاب بالطفل الرضيـع. قرصـات خفيفـة لذقنه اللحمية المدبّبة وأسماء غريبة تخترعانها لمناداته تتبعها زفرات خفة وبهجة.

أبدو مندهشاً لأن هذا النزل الخاص لا يُشبه في شيء ما كنتُ أتوقعه قبل مجيئي اليه. كنتُ أحسبُ أننا سنتصل الى مكان مشبوه وخرب، وأجد أنه، على العكس من ذلك، مكان نظيف وصحيّ ويدعو الى الارتياح. انه مناخ الريف العذب بكل دفئه.

وبينما انهمكت كلير باستكشاف مكان إقامتها الجديد، أعمد

الى التحدّث قليلاً الى احدى الآنستين.

ـ هل سبق لك أن قابلتِ سعادته؟ أسألها.

ـ لا، لقد جاء سكرتيره لاستئجار الغرف. ولكن بالله عليك بلّغ سعادة القنصل كم نحن فخورتان، أختي أورتانس وانا، لاختياره دارتنا. انه شرف كبير...

الخ... الخ...

ـ ألا تحفظين النشيد الوطني الألاباني؟ أقول.

ـ لا، أبداً.

ـ إذاً ينبغي أن تحفظي كلماته وموسيقاه جيّداً. لأن سعادته يريد أن تنشديه كلّ صباح على مسامع ابنه عندما يستيقظ.

وأغادرها عائداً الى باريس وقد ملأتها الحماسةُ بهجةً وارتباكاً.

الفصل الخامس عشر

في طريق عودتي أتـوقف لبعض الوقت في سان كلو لكي أبدّل ملابسي. ولا تخفي الوالدة دهشتها حين تراني مُقبلاً في زي السائق الذي أرتديه.

ـ أنطوان، يا صغيري، تقول بزفرة، أحياناً أشعر بـأنّك تتصّرف بغرابة!

فأقبّلهـا.

ـ إنها دعابة، مجرّد دعابة يا أمّي.

وأرمقها بحنان. تبدو وكأنها تقدّمت في السنّ، فيليس الحبيبة. في الآونة الأخيرة. لقد ازدادت التجاعيد حول عينيها وصدغيها. وغزا الشيبُ شعرها. نظراتها حزينة بعض الشيء. فينقبضُ لمرآها صدري. وأقـول في سّري ان العمـر يتقدّم بها في غمرة المخاوف والقلق. لقد أمضت حياتها لا يُفارقها القلق لمصير ابنها. وذات يوم ستفـارق هذه الدنيـا وستلازمني مشاعر الندم لأنني لم أصرف مزيداً من الوقت بقربها.

ـ أنا أحبُّكِ كثيراً يا أمي.

فتبدو مغتبطةً وتبتسم. وتداعبُ خدّي بطرف أصابعها دون أن تُجيب.

ـ اسمعي يا أمّاه، أعلم جيّداً أنني غالباً ما أغدقُ عليكِ بالوعود وأنني لا أفي بهـا كثيراً، ولكن الآن، انه وعد قاطع. فما إن أنهي القضيّة التي أتولاّها اليوم سنذهبُ سوياً لقضـاء خمسة عشر يوماً في الريف.

طبعاً هي لا تصدق حرفاً واحداً ممّا أقول، لكنّها تنظرُ الي كأنها تصدّق فعلاً.

ـ بالطبع، يا أنطـوان.

ـ لدي إجازات لا تُحصى. فلو أني أطالب اليوم بكلّ ما استحقّ لي من اجازات فسيكون بإمكاني أن أحظى بتقاعد مبكّر! سنقصد ركناً ما، غير بعيد. وبأية حال لن تعيقنا المسافة مهما بلغت. ناحية فيكـام، أتحبـين ذلك؟ وسنعثـر على نزل غير مجهّز بخط هاتفي وسنأكل الكركند، كثيراً من الكركند. وبإمكانك أن توضّبي الحقائب منذ الآن، إنه وعدٌ قاطع لا رجوع عنه.

*

* *

أرتدي ملابس مدنية وأنظُر الى مُنبّه اليد. انها تقاربُ التاسعة.

ـ ألن تتناول العشاء في المنزل؟ تسأل الأمّ الرؤوم قلقةً.

ـ بلى، ولكن فيما بعد. إحفظي لي طبقاً ما، وسألتهمه فور عودتي.

ـ سأشاهدُ التلفزيون، تقول هامسةً.

ما يعني، في لغة فيليس، انها ستنتظرني حتى نهاية البرامج وربّما بعد انتهاء البرامج بوقتٍ طويل. كم يلذّ لها أن تراني مُنغمساً في تناول الأطباق الشهيّة التي تحضّرها لي. تسكبُ لي الشراب، أو تناولني الملح أو الخردل حالما تشعر أنني أحتاج الملح أو الخردل...

ـ ألست متوعّكة، يا أمي؟

ـ لا، على الاطلاق. ما الذي يدعوكَ الى هذا الظنّ، هل يبدو عليَّ التوعّك؟

ـ ربّما بعض العياء.

ـ ذلك أن مدبّرة المنزل لم تأتِ اليوم. تخيَّل، لقد وضعت ابنتها مولوداً، ولكن المسكينـة كانت قد تناولت أثناء الحمل جرعات من «التاليدوميد» و...

وترسم فيليس إشارة الصليب على وجهها، فأدركُ أنّ السيدة سوغرونو المسكينة، التي يجتمع شمل الويلات في عقر دارها، قد أصبحت الآن جدّة لمولود يُشبه أسد البحر.

*

* *

هدوء مُسـطّح (انـه الشيء الوحيد المسطّح في شقّتهم) يسودُ الأجواء عند آل بيروربيه. تأتي الخادمة وتفتح الباب وتبلغني أن السيّد في داره بالفعل.

لقد رُفعت الأنقاض. وسدّت ثغرة الحائط بقطعة سياج مُشبّك، لكي يُتاح لجارهم في الطبقة العلوية الذي قد يقع دون أن يسمع وقع

سقـطته، أن يبقى حيث هو؛ وكذلك الأمر أُصلح من الأضرار ما يمكن اصلاحه.

برت تراقب شاشـة التلفـزيون متهالكةً فوق احدى الكنبات. وبقربها جلس صديقها المزيّن. وخلفها جلس بيرو على كرسيّ كأنّه راكب باص. ويُسمـع بوضـوح صوت حمّالات الجوارب المطاطي الخـافت لفـرط ما تستسلم البـدينـة لمداعبات المزيّن الموسيقية البـارعـة. على الشاشة تظهر صورة السيد بيار صبّاغ بشحمه ولحمه على أنه رجل القرن العشرين. يطرح السيّد صبّاغ سؤالاً عويصاً: «ماذا كان لون حصان هنري الرابع؟». ويستثير السؤال جوّاً من التشويق يستلبُ المشاهِدَ فلم يكلّف أحدهم نفسه مشقّة التـرحيب بي أو تحيتي. فأجلس بقـرب البدين. وتأتي الخادمة وتجلسُ فوق ركبتيّ لأنني استـوليت على كرسيّهـا. انها لحظات حبس الأنفـاس. مباراة العام: السيد بالاندار في مواجهة فتيان بلنـاف (متّحدين). يقول مندوب بلناف إن حصان هنري الرابع (ملك البـوربـون كاب) كان مُرقّطاً. أما السيّد بالاندار فيؤكّد من جهته، أن لونه كان أسود. صفر لكلا الفريقين! وتتواصل اللعبة.

يقرّر جلالته أخيراً أن يمدّ لي اصبعين لامباليين لمصافحتي.

- أيُّ نسائم سعد أتت بك؟ يسألني بنبرة ملكيّة.

فأشدُّ على اصبعي النقانق خاصّة يده.

- أيمكنني التحدث اليك لبعض الوقت؟

- في ختامِ البرنامج، يقولُ حاسماً. وبأية حال انّه السؤال الأخير.

ـ سؤال في الأدب! يوضح السيّد صبّاغ. (إنه يوم الخميس، يوم صبّاغ الطويل).

يسحبُ بطاقة من علبة طويلة وفجأة يتهلّك وجهه مثل الهالة التي تغمر أرجاء صالة السينما.

ـ من كتب رواية «Du Mouron à se faire»(*)، يسأل متخذاً على جاري عادته سحنته الهازئة التي تثير حماسَ أربعة ملايين وخمسمئة وستة وعشرين ألف متفرّج.

يجيب السيد بالاندار أنه شكسبير؛ أما مندوب بلناف فيقول إنّه سان أنطونيو، فيفوز طبعاً.

ـ لقد نسيتُ تماماً أنك مؤلفها، يعترف بيروربيه.

ـ ذلك أن ثقافتك الكلاسيكية لا تعوزها الثغرات!

كان نصر فريق بلناف ساحقاً. وأقصي السيد بالاندار عن المباراة. ومع ذلك يُكافأ بجائزةٍ صغيرة ويحظى بمصافحة الآنسة لو ساج. وثمة من وجدَ نفسه قتيلاً قبل أن يحظى بأقلّ من ذلك! وأهمُّ بتحية السيّدة الحوت لكنّها توارت في الأثناء. ثم عادت لتتهالك فوق الكنبة. يواصل المزيّن مداعبتها فتصدحُ البدينة الشمطاء بأنين يشبه دفق مساقط المياه.

ـ انها فترات الاستراحة بين برنامجين! أوشوش في أذن البدين مشيراً الى بعلته.

(*) عبارة تعني: «قَلَق» (عاميّة فرنسية). (م. ع).

فيهمس في أذني.

ـ لا أستطيع الاعتراض. فنحن في فترةِ خصام. ثمّ يقول مُشيراً الى صديقه الحلاّق: «تخيّل أن هذا المعتوه قد طلّق زوجته. ومن الآن فصاعداً سيمتّعنا بمؤانسته كلّ مساء.

أفهم من هذه الصيغة المفردة جمعاً يطفح به الكيل.

وأستدرجه الى الحانةِ في الأسفل.

*

* *

وما إن يستقـرُّ على متن الكرسي المحاذي للبار يشعر الرجلُ الهائلُ أنه في حالةٍ أفضل ويستعيدُ صفاء سريرته.

ـ أوتعلم، يقول، منذ شجار البارحة وأنا لا أشعر بالراحة. إذ يكـدّرني كثـيراً أن أفقد نمري. وفي آخر الأمر سأحصل له على الجنسيـة الفـرنسيـة. أمـا كلبي السـان برنار فهو نزيل عيادة البيطري. وسوف تراه غداً مكسواً بالجبس، وكما أصبحت حاله ستظن أنه ليس هو ما تراه بل تمثاله.

ـ سنضعه فوق منصّة الى جانب بينو، قلت مُمازحاً.

ـ على ذكر بينو، لقد عرّجت عليه هذا العصر.

ـ كيف حاله؟

ـ يُعـاني الحكة كالعادة. ويكاد الشرطي الذي يحرس بابه لا يفعل شيئاً سوى حكّ مختلف أنحاء جسمه.

ـ والآن، التقرير! أقول.

يكرع بيروربيه كأس البوجوليه جرعةً واحدة.

ـ لا تستبق الأمور، يقول معترضاً.

ويمسح شفتيه بضربة كمّ عنيفة ويشير الى النادل بأن يسكب له كأساً أخرى.

ـ حسناً، هاكَ ما لديّ. نتائج المراقبة، لا شيء يستحق الذكر لأن القنصلية لم تفتح أبوابها طيلة النهار ولم يأتِ أحدٌ اليها. لقد أفسدتُ عينيّ لفرط ما شخصتا في واجهة السفارة من وراء نافذةِ صاحبك الأستاذ العجوز ونظارته الرديئة.

ـ أما من جديد بشأن موربيون؟

ـ لا شميمَ خبر. وحارسة المبنى لم تره أيضاً.

ـ باختصار، أليس لديك ما تقوله لي؟

يتّخذ البدين سُحنة سلطان الغموض ويقرصُ ما بين فخذيه بطرف الإبهام والسبّابة.

ـ مَن يدري...

ـ لا تتخذ سُحنةَ من يَعلم ويمتنع عن القول، أيّها البدين: ليس هذا طرازك، أقول بحزم. إذا كان لديك ما تغرغر به فأبصقه الآن فوراً ولا تلعب معي دور هاري باور.

يستاءُ لكلامي هذا.

ـ هلاّ أقلعت عن معاملتي كسرولةٍ متسخة، يقول البدين المستاء. والجديد الذي سأطلعك عليه قد توصلت الى معرفته بفضل مواهبي الخاصة.

يكرع كأسه الثانية. وأتمالك نفسي عن تقريعه. فبالصمت وحده أنتصر عليـه. فأتنـاول صـحيفـة كانت بمتنـاول يدي فوق البار وأستغـرقُ في قراءة مقـالة حول مبـاراة موناكو ـ نيس. فينتزعها السيّد الحرون بقوّة من يديّ.

ـ لا داعي للمنـاكفة يا سان ـ أ، فأنا لستُ في الخدمة الآن. تأتي وتنتـزعني من أوقات الراحة أمام التلفزيون. وأترك زوجتي الموقّرة تحت وطأة مداعبات المزيّن لأتبعك وكلّ ما تفعله هو أنّك تقرأ صحيفة «الإيكيب» أمام عيني! هذا غير لائق.

تترقرق دموع المهانة في عينيه الملوّنتين بألوان مجاري الـمَسلخ.

فأحضنه مداعباً.

ـ هيّا يا بيرو، دَعكَ من العواطف. أخبرني...

إنـه ليّن العـريكة، هذا البيروربيه. لا يُقاوم ضعف العواطف النبيلة، فينشُقُ بقوة ويصّرح:

ـ حينَ وجـدت أن لا شيء يستحقّ المراقبة وشعرتُ بالضجر، رحتُ أبحث وأنقّب في أرجاء بيت موربيون.

ـ وما هي نتائج تنقيبك يا عزيزي؟

ـ هيذي هاكَ، هاكَ هيذي! أنشدَ وهو يُفتّش جيوبه.

ثمّ يطالعني بجـراب تبـغٍ صغـير تفـوح منـه رائحـة ميناء الصيّـادين في فصـل المطر. ويفتحه. يحتوي الجراب على صورة إبـاحيـة لامرأة ورجل يلعبان لعبة المصوّر (تلعب المرأة دور آلة

التصـويـر)، ومسـواكٍ مشرَّم، وحبـة بندق وقطعة نقدية من فئة الخمسـين فرنكـاً قديماً، وقطعة نقدية من فئة الخمسين سنتيماً جديداً، نثرةٍ من جبنة غروبير وزرّ لفتحة البنطال الأمامية. ويواصل تنقيبـه وسـط حفنة التبغ، ثمّ ترتسم على وجهه معالم الانتصار ويُطالعني بقطعة حديد صغيرة.

أتعرّف فيها الى رصاصة مسحوبة.

ـ Qué Zacco (*)؟ أسأله بالإيطالية.

ـ أنت ترى جيداً، يا صاحبي: انها رصاصة من عيار ١١,٣٧. وجدتها مغروزة في السقف. وحاولتُ أن أحدّد مصدرها وأفلحت في ذلك. لقد أطلقت هذه الرصاصة من جهةِ القنصلية وقبل أن تستقرّ في السقف انتزعت نثرةً من إطار النافذة. ولا بدّ أن النافذة كانت مفتوحة لأن زجاجها لم يُكسر. وقد تكون هذه الرصاصة قد اخترقت صاحبك الأستاذ قبل أن تستقر في السقف. ولكنّ الحق يقال أعتقد انه احتمال بعيد، لأن الرصاصة قد انحرفت عن هدفها قبل أن تصل اليه بعد ارتطامها بإطار النافذة.

رحت أقلّب الرصاصة في راحة يدي.

ـ مسألة موت أو حياة، قال موربيون، أليس كذلك؟

ـ يَسْ سير(**).

(*) لا بدّ أن المقصود Che Casa è الإيطالية، وتعني، كما لا يخفى على سان أنطونيو: «ما هذا؟!».

(**) أجل يا سيدي، بالانكليزية في النصّ.

ـ الآن بدأت أفهم. كان واقفـاً وراء النافذة يُراقب القنصلية مُستخـدمـاً منـظاره. فاكتشف جمـاعة القنصلية فعلته وأرادوا التخلّص منه. فأخطأه القنّاص وهرع موربيون يُريد إبلاغي بأي طريقة...

ـ لو أنّ الأمـر يعـود لي، يؤكّـد البدين، لبادرت الى الاتصال ببوليس النجدة.

ـ إن موربيـون من طراز أولئـك الذين لا يشبهـون الأنـاس العاديين في ردود فعلهم. لذلك حاول الاتصال بي. وفي الأثناء صعد اليه جماعة القنصلية للتثبّت من موته.

ـ ووجدوا أنه حيّ يُرزق!

ـ أجل. وعندئذٍ تخلوا عن فكرة قتله على الفور واقتادوه معهم. أراد موربيون أن يترك اثراً ما استدلّ به الى الواقعة. ولّما وجدَ نفسه عاجزاً عن التصّرف بسرعة، انتزع رقّاص ساعته.

ـ لمـاذا؟

ـ الساعة كانت نقطة البداية. فقد أدرك أن أحداً ما تسلّل الى شقته أثناء غيابه عندما انتبه الى أن الساعة ليست متوقفة برغم المـدّة التي أمضـاهـا في المستشفى. وهكذا خطر له أنه بانتزاع الرقّاص يُعلمني بأن الأمور ليست على ما يرام...

أصفن لبعض الوقت. يبدو لي هذا التفسيرُ صائباً. ذلك أني لم أفهم جيّداً مسألة انتزاع رقّاص الساعةِ من قبل، أمّا الآن فأنا واثقٌ من أنني أمسكتُ بطرفِ الخيط.

ـ ولماذا اقتادوه معهم؟ يسأل البدين.

ـ لأن اقتياد رجل حيّ أسهل من نقل جثة.

ـ ما كان عليهم إلّا أن يقتلوا الرجلَ ويتركوا الجثة في مكانها.

ـ لا بدّ أن خطّتهم كانت مختلفة. وبأية حال، أُدرك الآن حقيقة ما جرى.

ـ أخبرني، هيّا، يقولُ السّمين متوسّلاً.

ـ عندما وصلوا اليه كان موربيون يتحدّث عبر الهاتف، وظنّوا أنّه ربّما أخطر الشرطة بالأمر. فاحتاروا في أمرهم، لأنّ بقاءه حيّاً يعني أنه سيصبح شاهد إثباتٍ ضدّهم، أمّا موته فيعني أنّ جثته ستصبـح إثبـاتـاً لصحةِ أقواله. وكان الحلّ الوحيد أمامهم أن يقتادوه معهم بسرعة.

ثمّ يستغرقني التفكير. هل قُتل موربيون في ركن بعيد منعزل؟ إنه أمر مرجّح، لا بل أكيد، لأنّ المزاح ليس من طباع هؤلاء السادة. إذ تذهلني قدرتهم الهائلة على قتل أخيهم الإنسان. وكلُّ الدلائل تشيرُ الى أن مكيدة خطيرة تُحاك في هذه اللحظات بالذات. فالحصار يضيق ولا يتسع وقت هؤلاء السادة لأي تسويف أو مراوغة، ولذلك يتخلصون من كلّ العقبات برصاص مسدساتهم. إنّهم يُخاطرون بكلّ شيء على غرار متزلّجي النخبة الذين يُقامرون بسلامةِ عظامهم لكسبِ عُشرِ ثانيةٍ في هبوطهم المنحدرات.

ـ ومع ذلك أجدُ أن هذا التعاكس غريب بعض الشيء. يصّرح صاحبُ الاستدارة.

ـ أي تعـاكس؟

ـ تعـاكس المسـارات عبـر النافذتين! ففي المرّة الأولى يُطلق

الرصاص من منزل موربيون باتجاه القنصلية، وفي المرّة الثانية يطلقُ من القنصلية باتجاه بيت موربيون. انها كرة طاولة!

ـ بالفعل، أيّها البدين. أو ما يُسمَّى في بلاط صاحبة الجلالة اليزابت الثانية حفلة ـ ثقوب ـ الرصاص.

أنظر الى الساعة: انها العاشرة وبضع دقائق!

ـ أتهوى صيد السمك على ضوء المصباح، أيها البدين؟

ـ صيد سرطان البحر؟

ـ وسمك القرش! إني أدعوك.

ـ متـى؟

ـ على الفـور!

يبدأ بالشكوى.

ـ لا أستـطيـع: لقد فقدت عدّة الصيّد: فخلال عراكنا أمس قصّت بيرت جزمتي المطّاط بالمقصّ.

ـ الصيد الذي أدعوك اليه يقتضي انتعال حذاء رياضة.

ـ إلى أين وجهتنا؟

ـ الى رويل مالميزون.

ـ عند نهر السين؟

ـ لا، يا عزيزي: عند المياه الاقليمية الألابانية.

يهز رأسه الضخم كرأس عجل حتى كاد يتساقط النمش الذي يُغطي أنفه.

ـ أرفض رفضاً قاطعاً: مرّة واحدة تكفي! فما زلتُ أذكر، يا سان

انطونيو مغامرة تلك الليلة، لا شكراً، بالفعل.

ـ ممتاز، أقولُ له. إذاً سأذهب بمفردي.

أرمي ورقة نقدية لبائع الشراب المخلّل وأتجه نحو الباب بكبرياء.

ـ مهلاً، يقول المنتفخ معترضاً، لا تتسّرع، ما أردتُ أن أقوله لك هو...

إلّا انني أغلقت باب الحانة ورائي ورحتُ أسيرُ في اتجاه سيّارتي.

وما إن أدرتُ المحرّك حتّى فتح الباب الآخر بحركةٍ خاطفة ولم يلبث السمين أن تكدّس فوق المقعد بجانبي. ألم تقل أنت أن هذه المهمّة تستوجب انتعال حذاء رياضة؟ يسأل السمين. ذلك أني، كما ترى بأمّ عينيك، أنتعلُ الآن حذاءً عادياً.

الفصل السادس عشر

ـ ما الذي يدعوكَ الى طرق باب تاجر الكلاب في مثل هذه الساعة، يقولُ البديعُ مندهشاً. أتودّ أن تشتري كلباً.

ـ دعكَ من الأسئلة يا آينشتاين.

نحن في نانتير عند متجر «الامبراطورة» لبيع الكلاب وصاحبه مفتّش سابق في الشرطة لطالما كان شغوفاً بتربية الكلاب. تستقبلني جوقةٌ من الحيوانات النابحة. يُفتح الباب فيطالعني المفتش السابق كارلين مُرتدياً سترة الصيد ذات الأزرار المزركشة وقد نقشت عليها جميعها رؤوس كلاب.

يُغمضُ كارلين عينيه السلوقيّتين (فهو من مقاطعة بروتانيه) ويَصرخُ قائلاً:

ـ أهو حلم!

ـ بل علمٌ، أجيبه بفصاحتي المعهودة.

عناق يليه الحوار المعتاد الذي يُستخلص منه أنّه على خير ما يُرام ـ لا بأس ـ وانت؟ شكراً. آمل أن تكون كذلك أنت أيضاً. ويُدخلني الى مطبخ حيث يَحتضر جروُكسيح في سلّة مُسطّحة جُعلت لهذا الغرض.

ـ أي رياح سَعْدٍ ترمي بك في الجوار يا حضرة الكوميسير. أتبحث عن كلب؟

ـ لا، أبحث عن كلبة.

ـ من أي نوع؟ فلديّ كلب الراعي ومَلَطيّ الحراسة ودرواس بوردو.

ـ أهو ذاك الذي يُشبه أخاه كالتوأم؟

تستهويه الدعابة وإن كانت لا تستحقّ ابتسامة صفراء.

ـ أما زلتَ تؤثر الدعابة والمزاح يا حضرة الكوميسير.

ـ تقصد أنني أصبحتُ مفرطاً فيها. إسمع يا كارلين، لا أبالي كثيراً بالنوع، ما أريده هو كلبة في حالة هياج.

فتجحظ عيناه ويسأل ببلاهة:

ـ ماذا تقصد؟

ـ القصد واضح: أريد كلبة في حالة هياج، ولا بدّ أنك تملك واحدة في تشكيلة الربيع هذه، أليس كذلك؟

ـ أجل، ولكن...

ـ إذاً، أيّها الأبله، إنّها كلبتي. وأحذّرك: ما أريده هو دابة في حجم برت بيروريه!

ـ لديّ مرادُك: قِلطية حراسة مُغراء مُخططة في الرابعة من عمرها!

ـ أحضرها.

ـ هل أنت جاد حقاً، أتريدُ شراءها؟

ـ إني أشتريها. وأرسل الفاتورة الى تخشيبة القيادة العليا، ذلك أنها من جملة مصاريف الخدمة.

ـ لا بد أن ابتعاده عن السلك قد أنساه غرائب مزاجي فشعرتُ بأنه يكاد يُصاب بالسكتة الدماغية.

*

* *

ـ لقد قلت لي إننا سنذهب لصيد السمك، يقول البدين موضحاً. والظاهـر أننا على وشك القيام برحلة لصيد الطيور. ما اسم هذا الكلب الجميل؟

ـ إنه يُدعى جولي، أقول.

ـ اسم غريب إذ يُطلق على كلب بمثل هذا الحجم.

ـ إنها كلبة.

ـ بأذنين كهاتين يصعبُ عليّ أن أصدّق أنها أنثى.

ـ أعتقد أن التدقيق في الأذنين لا يكفي لمعرفة جنس الحيوان.

أنطلق في اتجاه ماليزون. وأصل الى جوار المنزل بعد منتصف الليل بدقائق.

ـ تشبث جيداً برسن الآنسة، أقولُ مخاطباً كتلة الشحم. لقد أصبحت اللعبة بالغة الخطورة.

وبـالفعـل ما إن نصـلُ الى سياج المنزل حتى يهرع الكلبان المفتـرسـان تسبقهما زمجرتهما المرعبة. أستخدم مفتاح سمسم الشهير وأفتح البوّابة. وتقضي اللعبة بأن أدخل الآنسة جولي الى المكـان (وبالانكليزية يُدعى المكان ايضاً) قبل أن تنطلق صفّارة

الانذار في الداخل. ويُتمتم الهائلُ الذي شرحتُ له خطّتي مشيراً الى الكلبين:

ـ وماذا لو كان الكلبان لا يباليان بالإناث، أحسبُ أنها النهاية يا سان ـ أ.

ـ انتبه! أقول. سأفتح البوّابة وأستعد لدفعِ الآنسة جولي الى الداخل على الفور وإلّا تشبّث المفترسان بأعقابنا.

وما أردتُهُ كان. يمسك المونسنيور بيروربيه بالكلبة جيّداً وما إن أفتح البوّابة حتى يدفعها البدين الى الداخل.

ـ دخلت ملكة الإغراء! يصرخُ مبتهجاً.

فلا يُطيل الكلبان الانتظار. وها هما يستقبلانها على أفضل وجه! ويروح الشمّامُ يقبعها ملحاحاً. ولا تعرفُ المسكينة كيف تواجه الذكرين. فتتقدم في حركة دائرية وتوزّع عضعضاتٍ خفيفة، ضرباتٍ خفيفة بقائمتيها الخلفيتين، ولكنّ الواضح أنها لا تبدي مقاومةً جادّة. فهي تتمنع احتشاماً. ويلكزني بيرو الذي يُراقب المشهد، بمرفقه.

ـ إنها تتمنّع كما تفعل النساء. انظر الى هذه المكّارة الصغيرة التي تتحرّق شوقاً ومع ذلك تبدي لهما عدم الاكتراث قبل أن تنالهما على التوالي.

ننتظر بعض الوقت. فلا تلبث الكلاب الثلاثة أن تنتحي زاوية ظليلة من الحديقة. وحان وقت العمل.

نسيرُ منحنيين فوق عشب الحديقة لكي نكتم وقع أقدامنا. وكم

كنتُ مُحقاً حين لاحظتُ أن الإضاءة التي تنير المنزل لا تتبدّل ليلاً نهاراً.

فضوءُ الكوكب الليلي(*) الشاحب لا يُبدّل شيئاً من منظر بيت القنصل الكئيب.

يسطع ضوء وحيد خَلَل نافذة وحيدة. انها النافذة التي تقف خلفها أحياناً المرأة الشقراء.

أحسبُ أنها تعاني أرقاً مزمناً.

أشير الى البدين بأن يمكث في انتظاري وأدور دورةً كاملة حول المنزل. لا أجدُ ما يثير الريبة.

ـ هيا تعالَ، أيّها الشرطي المجيد.

يتبعني. ألاحظُ باباً صغيراً لا بدّ أنه يُستخدم لإدخال حمولات الفحم. الباب مقفل بالمفتاح، ولكن أنتم تعلمون جيّداً كيف أُعالج الأقفال بخفة وبراعة!

نهبط نصف دزينة من الدرجات. يُشيعُ موقد المدفأة العملاق شُعاعاً من الأضواء الحمراء الغائمة في أرجاء القبو. إلّا أنّ الإنارة التي يوفّرها ليست كافية. فأشعل مصباح الجيب الكهربائي. إنّ مثـل هذه الأمكنـة لا تكون مبهجة في العادة، إلّا أن هذا المكان بالذات يوحي بالفجيعة.

(*) ينبغي ان نستعين، بين الحين والآخر، بلغة الشعراء الكبار، لأن مثل هذه الاستعارة مجلبة للراحة. وها أنذا، إذ أفعل، تنتابني تشنجات الكاتب ويقتلني وجع عَقِبيّ. (سان انطونيو).

أتشمّم الزوايا مثل كلب صيد.

ـ ما الذي تبحث عنه؟ يسأل بيرو.

ـ وما أدراني أنا!

فيهز كتفيه.

ـ إنّه صيد في الظلام الدامس، يقول بحصافة.

ثمّ يتوقف ويُطلق صرخة ألم مكبوتة.

ـ ماذا حدث؟

ـ لقد انغرز شيءٌ ما في قدمي، لقد أضعتُ فردة حذائي في الحديقة.

أصوّبُ نور المصباح الى قدميه. يرتدي جوربين سوداوين. ينزع أحدهما وألاحظ أنه مليء بالثقوب، ولكن يصعبُ على الناظر أن يرى الثقوبَ حين يرتديها. شيءٌ ما قد غرز في كعب قدمه كأنه قطعة معدن لامع. فينتزعه.

ـ مسمار مثبّت؟ أقول سائلاً.

ـ ليس تماماً، يجيب بيروربيه وقد أمسك بزرٍّ ياقةٍ مستعارة بين إصبعيه.

فتبدر مني آهةُ تعجبٍ مكتومة حتّى يُخيّل لسامعها أنها رسَبت في فحص السماع.

ـ إنه زرّ ياقة موربيون!

ـ هل أنت واثق مما تقول!

ـ لم أرى أحداً سواه يرتدي ياقة سيلّولويد مستعارة. أنت تدرك

الآن يا بيرو انني كذبتُ عليك حين قلت لك انني أجهل تماماً عمّا أبحث. أنا أبحث عن موربيون المسكين. وكنتُ أرتابُ بأن أولئك الأوغاد قد اقتادوه الى هنا!

ـ للإيقاع به في مكيدة الأب فرنسوا؟

ـ بالطبـع.

ـ إذاً لا بد أن تكون جثته في الجوار!

ونبـدأ البحث بانفعال محموم. وفي كل مرّة أجدني مُرغماً على استجـداء الصمت من البـدين الذي يتحـرّك بخفةٍ بولدوزر من ترسانة الأشغال العامة.

نغرز قضباناً في أكوام الفحم، ونقلّب الحاجيّات العتيقة وقطع الغيار المكدسة في القبو، ونرجّ البراميل: عبَقاً؟ آسف، الخطأ بسبب البراميل، كنتُ أقصد: عبَثاً).

ـ النتيجة: صِفْر اليدين، يقولُ القرد الشجاع الذي يرافقني وقد تبللت ثيـابه بفائضٍ من العرق البروليتاري. إذا كانوا قد قتلوا أستاذك بالفعل فلا بدّ أنهم دفنوه في الحديقة؛ وإلاّ...

ويُشير الى موقد المدفأة.

فأدلي بدلوي. أعشقُ أن أفعل. أحسبُ أني أتفوّق على الجميع في إصراري على الإدلاء بدلوي.

ـ ماذا نفعل الآن؟ يقول ألكسندر ـ بنوا قلقاً.

وبدل أن أجيب أدلفُ الى حجرة ضيقة ملحقة بالقبو. إنها حجرة غسيـل وفيهـا حوض حجري، ومضخة ماء وأسلاك ممدودة بين الجدران وقد كساها الصدأ.

أنـظرُ داخـل الحـوض. أجـدهُ مليئاً بالطحين، أو... أتلمّسه بأصابعي: إنه كلس! كلسُ منطقة آلبين، لا بل: أفضل أنواعه.

امسـكُ قضيبـاً وأنقّب بواسطته داخل الحوض، يرتطم بكتلة جامدة. وعندئذ أرفع الكلس بواسطة معزقة تنبّأت بضرورة وجودها هناك منذ أن شرعتُ بكتابة روايتي هذه. وإذا بي أكتشفُ بعد وقتٍ جثةً متآكلة حتى العظام بفعل الكلس.

ـ إذاً، أترى الآن، يتمتم رائد الموضوعيّة، بيرو، لقد عثرت عليه أخيراً، أستاذك الكريم!

الفصل السابع عشر

إن مثـل هذه الأدلّة الثبوتية من شأنها أن تسبّب الكثير من المتاعب لقنصل الالبانيا.

ـ أنستدعي قوّة للمساندة؟ يسأل البدين. إذ يتوجّب عليّ أن أعلمك بأنني لا أحمل سلاحاً. لقد جئتُ خالي الوفاض نظيف اليدين.

لا أصحو من ذهولي إلّا بعد وقت. وأفكّر: إنّ أي محاولة من قبلنا نحن الإثنين فقط هي محضُ جنون وقد تودي بكلّ جهودنا. ثمّ ان المستجدّات التي طرأت على القضيّة تستدعي مراجعة الرئيس.

ـ لنذهب! أقولُ بلهجة أمر؛ الأمر الذي يَستجيبُ لرغبات رفيقي المقدام.

أعيـد الكلس الى الحوض ونتسلّل عائدين من حيث جئنا، لم توقظ زيارتنا أحداً. الهدوء يعمّ المكان. وقد أطفىء النور في غرفة المرأة الشقراء.

ـ والكلبة؟ يسأل بيرو فور وصولنا الى الباب الخارجي.

ـ سنستعيدها فيما بعد، دَعْها تنالُ ليلتها الحمراء.

*

* *

في اليوم التالي، الذي يُصادفُ تماماً غداة عشية البارحة، يُعقد اجتماع قمة في مكتب الأصلع. ويشارك فيه حسبَ ترتيب الأهمية: هو وأنا.

أقدم له عرضاً مفصلاً للأحداث حسب تسلسلها الزمني وفي اتجاه دورة عقارب الساعة.

لقد أصغى وأدرك واتضحت صورة الوضع في ذهنه.

ـ من المؤكّد، يقول مُستنتجاً، أننا حيال عصابة حقيقية. ولا أفهم جيّداً كيف لأحد أعضاء السلك الدبلوماسي أن يترأس مثل هذه الجماعة!

ـ الوقائع لا تكذب، أقول مقاطعاً. فالجرائم تليها الجرائم...

يقاطعني.

ـ لقد قابلت الطبيب الشرعي. لقد كانت وفاة ياباكسا دانلافي وفاة طبيعية، ولم يعثر على أي أثر للسمّ. لقد أصيبت بنوبة قلبية ولم يصمد قلبها.

ـ غير معقول، أقول باستياء.

ـ أنت تعرف جيّداً طبيبنا الشرعي: فهو لا يأخذ الأمور بخفة، وإذا أكّد أن الوفاة طبيعية فهذا يعني أن الوفاة طبيعية.

ـ ولكن يجب أن تعترف أيّها الرئيس انها مصادفة مذهلة. فالمستغرب أن تفارق الفتاة الحياة بعد ساعاتٍ من محاولة قتلها دون أن يثير الأمر لدينا أية شكوك، أليس كذلك؟

ـ قد تكون الصدمة، والانفعال الذي سبّبته، قد أفضيا الى الوفاة؟

ـ إذا كان هذا التفسير يُرضيك، فهو يُرضيني أنا أيضاً، أقول بسذاجةٍ زائفة لا تخفى على الأعمى الأصمّ الأبكم.

ـ والآن بشــأن خرافنــا الألابانيين، يقولُ المنتوفُ بنبرة ثغاء. أعتقد يا سان أنطونيو أنه ينبغي أن نتجنَّب أي ضربة حاسمة في الوقت الحــاضر. ولا شكّ أنّــك محقّ حين تقول إن هؤلاء الأوغاد يدبّرون عملية خطيرة، ولذلك فإن أي عملية متسّرعة قد تؤدي الى نتائج سلبية. فلنحكم شدّ حبالِ الشبكة و...

انــه يهذي! هوذا يعيد اختراع خيوط الشبكة، العبقري برنار باليسي. فالشبكة التي يحرص على إحكام خيوطها قد لا تصطاد إلاّ قبض الرياح، ولن تصطادها إلاّ إذا كانت صغيرة الحجم.

ـ سأعمل على أن توضع القنصلية وبيت القنصل تحت المراقبة المتشدّدة. أما أنت، فامكث في موقعك، متأهباً. ستقل سعادته الى حفل استقبال، أليس كذلك؟

ـ بالضبط. حفل استقبال رسمي، قال السكرتير.

ـ سأستعلم عن الأمر، يقول الحيزبون، إذ ينبغي أن نراقب كلّ تحركات القنصل. من الآن فصاعداً، علينا بالحيطة والحذر...

أرفع إصبعي مثل تلميذ يستأذن بالمغادرة.

ـ نعم؟ قال الكهل.

ـ أعتقد أيها الرئيس، أن الحلّ الأفضل هو اعتقال السكرتير وحرسه والمرأة الشقراء وربّما القنصل أيضاً. إذ يسهل علينا الآن أن نجد مبرّراً لمثل هذه الخطوة بعد أن عثرنا على جثة موربيون في قبو المنزل!

يضرب السيّد الأصلع ـ العجيب بقبضته على الطاولة.

ـ لننفـذ ما أمـرتُ به. ومـرّة أخرى أقول لك إن التحقيق في الأوساط الدبلوماسيّة يتطلب مقداراً أكبر من... الدبلوماسيّة.

ـ ذلك أنّك ترغب في مراعاة دبلوماسيين لا يتوانون عن قتلِ أساتذة شرفاء ثمّ يذيبون جثثهم بالكلس.

فينهض.

ـ أرجو المعذرة يا سان أنطونيو، لديّ موعد.

كنتُ أودّ فعلاً أن أركل قفاه بحذائي عيار ٤٢، ولكني أعلم جيّداً أن مثل هذا التصّرف لا يليقُ بأخلاقية السلك.

وفي مثـل هذه الحـال الأجدر بي أن أخرج الى الهواء الطلق وأستنشق هواء المجاري الحرّيف.

فأذهـب.

*

* *

يمضي النهار في دَعةٍ وسكينة. وأذهب لزيارة بينو وأحكّ له: ساقه اليمنى وعنقـه وخـدّه الأيسر وإليته اليسرى وأذنه اليُمنى وأنفه ومـؤخّـرته وقذله وجفنيه. إنّ المتباكي العزيز يُكابدُ آلامه بصبر. يتلقّى عنايةً مميّزة ويلعب دور النجم.

أبذلُ كلّ ما في وسعي لأطلعه بشيءٍ من المواربة على خبر وفاة سكرتيرته السابقة، إلاّ أن بينوش يُجيدُ تلقّي الأنباء السيئة إذا كانت لا تعنيه مباشرة.

ـ ياباكسا المسكينة، يقولُ كنايةً عن محاولة في تأبينها، لقد كانت فتاة لطيفة ولا تقترف أخطاءً في الطباعة.

ـ هل كانت تشكو من مرض في القلب حين عملت في مكتبك؟

يفكر قليلاً.

ـ لا أعتقد. وإن كانت... بلى، مهلاً، أذكر أنّها ذات مساء وفيما كانت تهمّ بمغادرة المكتب شهدت حادثةً ما وكاد أن يُغمى عليها. وكان عليّ أن أنقلها الى أقرب صيدليّة حيث أجريت لها...

ـ مراسم الدفن الأخيرة؟

ـ لا، عملية انعاش بواسطة مصل مُعيّن. لاحظ يا سان أنطونيو أن العدد الأكبر من النساء يُغمى عليهن حين يشهدن حادثة ما...

أغادر الجريح العزيز بعد أن قطعتُ له وعداً بأن أعود لزيارته قريباً بغية إجراء عملية حكٍّ شامل لبدنه الذي يستبدّ به الأكلان.

*

*   *

وقبل أن أعود الى «وظيفتي الجديدة»، نتبادل بيروريه وأنا أطراف هذا الحديث الـمُتحضر.

ـ إسمع أيّها البدين، هذه الليلة أقامر بمستقبلي المهني كلّه، أقول له. إن ربحتُ الجائزة، لا بأس، وإلا فستجدني غداً هائماً أبحث عن وظيفة حارس ليلي في أحد القطبين حيث يدوم الليلُ ستة أشهر. لذلك كل اتكالي على صداقتك، وجرأتك الدانتونية(*) وعلى

(*) نسبة الى دانتون، احد ابرز وجوه الثورة الفرنسية. (م. ع).

مزاياكِ الجوهريّة (وإن كانت مليئة بالثغرات) كشرطي، وعلى حدسك وحسّ المبادرة لديك وعلى قوّتك و...

فيشيرُ بيده مُقاطعاً وناثراً في الأرجاء رائحة الثوم التي تنبعث منه.

ـ داعب الكلب فلا تجني سوى القمل! يقول الغول. هيّا، افصح عمّا تريد مباشرة.

ـ يجب أن أقلّ القنصل هذا المساء الى حفل استقبال.

ـ وهذا يعني؟

ـ أثناء غيابه ستعمد الى التسلل بصورة غير رسمية الى منزله في رويل مالميزون.

ـ مرّة أخرى؟

ـ ولكن هذه المرّة ستنقّب في ارجائها شبراً شبراً، وستلقي القبض على سحنةِ الغوريللا المقيم هناك وعلى السكرتير أيضاً.

ـ أتقول انه ينبغي أن أتسلل بصفة غير رسمية؟

ـ هذا يعني دون مذكرة اعتقال ودون أن تفصح عن صفتك كشرطي، أفهمت؟

ـ وتريدني أن اعتقل كلّ هؤلاء بمفردي؟

ـ أنت المفتش الأوّل. اصطحب بعض الرجال. إقرع. واعتقل المخاط الذي سيفتح لك الباب. ثمّ تابع طريقك الى داخل المنزل واعتقل الجميع...

ـ وبعد ذلك؟

ـ بدل أن تقتاد مُعتَقليك الى منتدى السجناء، اذهب بهم الى

منزلي في سان كلو حيث تحتجزهم وتراقبهم الى حين عودتي. ولكن حذارِ فأنت تعلم جيّداً أنّهم أبرع من استخدم الأسلحة النارية.

ـ أبرع أم لا، فبأية حال ليس هؤلاء، من سينالون من بيروربيه.

ـ إذاً، نفّذ ما أقوله لك أيّها الفتى!

ـ وماذا لو اندلع الضريط(*)؟ يسأل الكركدنّ قلقاً، هل سأتحمّل المسؤولية وحدي؟

ـ لا، سأكون الى جانبك.

فيقولُ متفاخراً.

ـ سيُصار الى تنفيذ رغباتك كأنها أوامر يا مونسنيور!

فأطمئن وأهرع في اتجاه الضاحية الغربية.

*

* *

يستقبلني الكلبان الضخمان بزمجرة وتقافز حين أقرع الباب. أحاول أن أتبيّن ما حلَّ بالآنسة جولي المتوارية عن الأنظار. والأرجح أن الغوريللا قد رمى بها الى الشارع حيث تنتمي. وليس من المستغرب على الاطلاق أن تضع فيما بعد جراءً ليست من فصيلة قلطية الحراسة على الاطلاق. وعندئذ سيبدأ الشجار الحقيقي بين أصحاب النسب واللقطاء.

جاء العتعيت المتضخم وفتح الباب مهدئاً من روع الكلبين. فأبادره شاكراً بتحية عسكرية.

(*) يريد: ماذا لو حدث إطلاق نار. (م. ع).

يهز رأسه بجفاء. انه بلطف دبٌّ قُطبي أيّها الفتيان.

- عليك بتجهيز سيّارة صاحب السعادة، يأمرني، ان الغبار يكسوها...

فأهرع اليها. أجدُ السيّارة مُرمّدة مثل أهل الجنازة. فعندما يقود المرء هذا النوع من السيّارات يحسب أنه مجرّد سائق في مصلحة النقل المشتركة الحكومية. أقودها الى خارج المرآب وأركنها في الحديقة حيث أنصرف الى تلميعها بواسطة جلد جمل ميت.

تستعيد لمعانها. انها حقاً سيّارة باذخة لا تُضاهى. لستُ مِمّن يرغبون في التنزه كلّ يوم على متنها ولكن ينبغي الاقرار بأنّ مظهرها ساحر. وعندما أفرغ من تلميعها أجلس على مرقاة بابها الأمامي أدخّن سيكارة. بين الأشجار تسمع زقزقة عصافير. وتبرز النجوم بارقةً في سماءٍ صافية. كم ينعم الكون بالسكينة حين يدعه البشرُ وشأنه! أفكّر في جثة موربيون المسكين. فالحقّ يقال ان هذا الرجل الوديع قد لاقى مصيراً مفجعاً. كنت أحسبُ أنه سيجرجر عمراً طويلاً من الأمراض بين قططه وكتبه. إلاّ أن سخرية القدر أبت إلاّ أن تكذب حسباني.

- هل أنت جاهز؟

انه صوت الغوريللا، يرمقُ سيكارتي بعين حمراء.

- أنا انتظر، أقولُ قاذفاً بعقب السيكارة نحو العشب المبلّل.

أصعد الى السيّارة وأقودها بمحاذاة مصطبة المنزل. أشعر باختلاجات قلبي المتسارعة. أخيراً سأتمكن من رؤية وجه هذا القنصل اللعين! أترجل وأفتح الباب الخلفي ممسكاً بكسكيتي

منتصباً في حالة تأهب يعجز عنها نصب الشهداء التذكاري. يظهر طيفان على المصطبة. أحدهما هو صديقي وادونك هيثوردو، بكامل اناقته في بزّة خضراء داكنة وأزرار مزركشة وكتفيتين مذهبتين. أما الآخر فلم يكن سوى المرأة الشقراء التي لمحتها عبر النافذة.

استحوذت هذه الأخيرة على كلّ ما فيَّ من انتباه. ترتدي فستان سهرةٍ أبيض مزيّناً بوردةٍ من الذهب الخالص. إنها جميلة وحزينة. إذ يبدو بوضوح من خلال المساحيق التي تغطي وجهها إن قسماتها مشدودة وبدا التغضن يحيط بعينيها المتعبتين. إنها امرأة في الثلاثين من عمرها تقريباً، شعرها أشقر يميل في مواضع الى دكنةٍ رمادية، عريضة الوركين بعض الشيء لحيمة الساقين (كما أحبّ النساء وإن لم يشاطرني البعض ذائقتي)، لكنّ مظهرها يوحي بفتنة مثيرة. تصعدُ الى المقعد الخلفي وفيما تستقر في جلستها ترمقني بنظرة ذات مغزى وأعمق من بئرٍ في منجم. يصعد هيثوردو من بعدها. فأمكث للحظات متردداً.

ـ الن يأتي سعادته؟ أسأل.

ـ لا، يجيبُ بجفاء.

أغلق الباب. وتبدو لي أبواب هذه العربة المغلقة في إحكامها اشبه بأبواب خزنة فولاذية، وقد تكون أكثر سَمْكاً، أصعد بدوري وأمكث خلف المقود في انتظار التعليمات.

يُنزلُ هيثوردو الفاصل الزجاجي بين الركّاب والسائق:

ـ قصر الأليزيه! يقول بلهجة أمر.

يا للحماقة. فتصعد الدماء الى رأسي.

إذاً سيّداتي سادتي أنتم تقصدون الأليزيه! أشعر بالقلق بعض الشيء(*). ولماذا لا يلتحق القنصل بالركب؟ وبأي صفة يحلّ السكرتير في مكانه؟

انطلق وقد أثقلت رأسي أطنان وأطنان من الأسئلة المريبة.

عند مروري بجناح جوزفين ألمح رأس بيروربيه الضخم. فهو يلازم مركز المراقبة ريثما نغادر. وأرجو أن يوفّق بعمله. ذلك أنّ رفاقي هم أوّل ضحايا هذه القضية!

لا أسمع الحديث الذي يدور في الخلف بسبب الفاصل الزجاجي. ولكنّ عبر المرآة الارتدادية المقعّرة طراز فاد ـ ساتاناس أتمكن من رؤية الراكبين خلسة.

لا يتبادل رفيقا الرحلة أية كلمة. فقد انتحت المرأة الشابة طرف المقعد على أبعد مسافة ممكنة عن رفيقها. أمّا هذا الأخير فقد ارتفق المسند القلّاب ويبدو مطمئناً فخوراً ويلقي بنظراته اللامبالية على سكان الضواحي الذين يهرعون فوق الأرصفة.

اجتاز منطقة «ديفانس»، ثم جادة «نووي» و«بورث ماييو» وجادة «لا غراند آرميه». ثمّ ساحة «الايتوال»، فيطالعني «الشانزليزيه» بكامل أبّهته. وعند المستديرة انعطف يُسْرةً لأسلك شارع «فوبور سانت أونوريه» وأصلُ قبالة الأليزيه. محرّس

(*) لم نعثر في العربية على معادل أفضل لعبارة سان أنطونيو العربيّة في الأصل: Un chouïa . (م. ع).

الجنرال(*) مضاء في شارع جان جيونو. رتل من السيّارات الفخمة، وبداخلها أجمل أزياء علية القوم، يصطفّ أمام الباب وقد انهمك الحرسُ في زي الاحتفالات الرسميّة في تنظيم مرورها. أتبع الرتل. وها انذا بين سفير «كرواموازيا»(**) ونائب قنصل «بروكسينيتيا»(***). يتقدّم الرتلُ ببطء. وفي آخر الأمر أصل بالسيّارة - ولأوّل مرّة في حياتي - الى باحة التشريفات. تعزفُ الموسيقى العسكرية النشيد «هاك، يا صغير، هذه شروى نقير»(****). عمداء في اللبّاس العسكري يستقبلون الوافدين. وأرى فوق مصطبة القصر كلّ ممثلي السلك المُصاب بالقبض (على قولة بيرو): كبير وزراء تالبونجور، الكاردينال سلفمايدمان، أسقف بوسطن، سفير أبروتيسان، سعادة السفير ياتاموتو كيرويه على رأس الوفد الياباني، المونسنيور كوشتابيان، الموفد البابوي، السيّد جول نابوليتان، عضو الأكاديمية الفرنسية، الأميرال سابورديه، البارون دو ميدو، الحاخام الأكبر دويون، القس فاليريادو، السيد كاش هاندكاري، وزير الخارجية الأميركي، السير برنير بارثي، نائب السفير المساعد لبريطانيا العظمى، الرئيس فوينوزوف والأميرة إيفا دونكشايترو حاكمة بيلايدو.

وبدوري أركن السيّارة بمحاذاة درج المصطبة. يتقدّم عسكري

(*) ديغول.

(**) شدة الاحمرار (كذا).

(***) مشتقة من القوّاد (كذا).

(****) لأمانة النص نورد الأصل: «Tiens, Petit, voilà vingt sous».

من ذوي الرتب العالية ويفتح الباب ثمّ يؤدي التحية العسكرية ويمدّ إلى الراكبة الشقراء يداً مقفّزة بقفاز أبيض. ثم يشير علي أحد رجال الحرس الذي يشبه الطاووس بأن أركن السيّارة في المرآب الرئاسي الخاص. فسمعاً وطاعة. نوافذ الأليزيه الواسعة تسطع بالأنوار. حشد هائل. عسكريون في الخارج ومدنيون في الداخل. يدنو مني أحد الزملاء (السائقين):

- هل أنت الألباني؟ يسألني.

فأجيبه بنعم ولو مؤقتاً.

- أنا الآن مغربي.

لكلّ امرءٍ من دهرهِ ما تعوّد.

- أعرفُ مخرجاً من هنا، فماذا لو خرجنا لاحتساء كأس؟ يقترحُ سائق المغرب.

- اقتراح يصعب رفضه.

فنتوارى خلسة فيما يتابع الوافدون توافدهم، وتتابع الموسيقى عزفها وتواصل الأليزيه إشاعة بهجتها الأليزيية.

الفصل الثامن عشر

بعد أن شربنا أربع كؤوس بوجوليه في حانةٍ في شارع آنجو وبعد أن زوّدني رفيق الشراب بعنـوانِ حانـةٍ حيث بامكاني أن أحتسي الآنجو في شارع بوجوليه، أغادره للإتصال بالمنزل.

تردّ فيليس وتبدو لي على حافة الانهيار.

ـ السيـد بيروربيـه هنـا برفقة آخرين، تقول. بينهم جريحان أحاول تضميد جراحهما.

ـ أريد أن أتحدّث الى بيرو يا أميمتي.

ـ أغتبط. هكذا إذاً أفلح البدين في إنجاز مهمته.

يتناهى صوته الدهني فيقرع أذني.

ـ لقد أنجزت المهمّة يا سان أنطونيو. إنها حملة اعتقال واسعة يا ابن أختي! ولديّ خبر صاعق سيذهلك!

ـ أي خبر؟ أنعقُ قائلاً.

ـ لقد عثرت على السيّد موربيون.

ـ ما الذي دهاك أيها الفتى. كنا سوياً تلك الليلة حين...

ـ ولكن لا، لقد أخطأنا بشأن هوية الجثة. ليس هو من أغرق في الكلس بل القنصل!

فأزمجـر

ـ ماذا تقـول!

ـ إنها الحقيقة «العارية» يا صديقي. أستاذك حيٌّ يُرزق وعلى خير ما يرام. ولكن ربّما كنتُ أبالغ بعض الشيء في الصفة الأخيرة فهو متوعّك قليلاً بسبب الخوف والمعاملة السيئة التي تلقّاها.

فأصـرخ.

ـ هيّا، ارو لي ما حدث بحقّ السماء!

ـ لقـد اختـطفـوه من منـزله كمـا توقعتَ أنت. انتـظر قليلاً سأستدعيه لكي يكلّمك. ليس في صحة جيّدة ولكنه قادر على الكلام.

ـ مهلاً، وماذا عن الرجل الآخر؟

ـ الغوريللا؟ لقد جعلتُ وجهه مُسطّحاً بضربة واحدة إذ حاول أن يقاومني. والآن تحاول أمّك أن تصلح فيه ما يمكن اصلاحه وأحسب أنه يحتاج لقدرة ساحر لا لمهارة طبيب، فقد أصبح وجهه أشبه بلوحة لبيكاسو.

ثم يصرخ منادياً:

ـ هه! يا سيد موربيون! تعالَ وتحدّث مع تلميذك السابق!

فتناهى الي صوت موربيون الواهن يشرح للبدين:

ـ يا صديقي الطبيب لا ينبغي أن تقول «تحدّث مع»، إنه تعبير مغلوط. فنحن نتحدّث الى وليس مع...

ـ وتبّاً...! يقول بيرو معترضاً، وما الفرقُ بين الكلام والكلام؟

ينتزع موربيون السمّاعة من يده بحركة استياء.

ـ يا صديقي الصغير، يتمتم قائـلًا، لا بدّ أن الشرطة تعاقب المجرمين لكنّها تتغاضى عن جرائم لغتها!

ـ هالو، يا أستاذ، كيف حالك؟

ـ حالي مثل حال مَن أصيب برصاصة في عضلة ذراعه ومكث ثماني وأربعين ساعة في قبو بلا طعام وقد كبّلت يداه بشريط معدني. أمـا الآن، وبفضل رعاية والدتك المستنيرة، أشعر بأني في حالٍ أفضل. بعد هذا كله ينبغي أن أعود إلى المستشفى وأمكث هناك. فهو المكان المثالي لِـمَنْ بلغ سنّي.

ـ أخبرني قليلاً عمّـا جرى.

ـ كنت أراقب فتيانك الالابانيين بواسطة المنظار وارتابوا بأمري. فأطلقوا عليّ النار وأصبتُ في ذراعي. سارعتُ لإبلاغك بالأمر. ثم جاؤوا الى منزلي للتثبّت ممّـا حلّ بي واقتادوني معهم. كلُّ هذا لا يخرج عن المألوف.

يا له من صنديد، هذا المربي! لقد استهوته المغامرة، استاذي العـزيـز موربيـون! لقد أصبح النقيب «تروي» بلحمه وشحمه، صدّقوا أو لا تصدّقوا!

ـ لقـد قال لي بيروربيه إن القنصل قد استحمّ في حوضٍ من الكلس، فكيف له أن يعلم؟

ـ لأنني أخبرته يا صديقي الصغير. فلأوضح لك قليلاً: خلال فتـرة استشفـائي التي دامت شهـرين كان بجـواري في غرفـة

المستشفى، مريضٌ أصمّ وأبكم. وتعلّمت قراءة الشفـاه بفضله. فعنـدمـا كشف جمـاعـة القنصلية أمري كنتُ أرى جيّداً أنّهم يتحدّثون في أمور مهمّة.

ـ كلّي آذان صاغية أيّها الأستاذ...

ـ طبعـاً لم أتمكّن من فهم كلّ ما يدور بينهما بسبب المسافة وضعف النظر. ولكن أستطيع القول أنّ مجمل ما فهمته هو التالي: لقد قتلوا القنصل باطلاق النار عليه من منزلي. وهم يدبّرون خطة لقتل وزير خارجية الاتحاد السوفياتي ورئيس الدولة ومن جهة أخرى...

ولكني لا أدعه يتابع حديثه. أقفل الخط بسرعة وأهرعُ الى سائق السفارة المغربية لأسأله:

ـ هل يُشارك سفير الاتحاد السوفياتي في الأمسية التي تقام في الأليزيه؟

ـ هذه المسائية...! يقولُ متحتعاً، تُقام على شرفه!

أطلبُ فيشة أخرى من عاملة الصندوق وأعودُ الى الهاتف. وهذه المرّة أتّصل بالختيار.

ـ ما جديدُك يا سان أنطونيو؟ آمل أن لا تكون قد اتخذت أي مبادرة من شأنها أن تُسيء الى مجريات القضيّة؟

ـ اسمعني جيّـداً يا كومـة الخر...! أصرخ قائلاً. بين لحظة وأخـرى سيتعـرض رئيس الجمهـوريـة ووزير الخارجية الروسي لمحاولة اغتيال.

ـ إذا كانت هذه احدى دعاباتك يا سان أنطونيو...

ـ قد تكـون المحـاولة جرت في اللحظة التي أكلّمك فيها، أيها الرئيس. يجب أن تصدر أوامرك الفوريّة باعتقال سكرتير القنصلية الذي يمثـل القنصـل في حفل الاستقبال. فهو الذي سينفذ هذه العملية. يجب أن يُعتقل فوراً، أتسمعني؟ فوراً. وبشيء من المرونة!

اضعُ السمّاعة منهوكاً أتصبّبُ عرقاً.

ـ يا لسحنتك الغريبة، أيها الرفيق! يقول «زميلي» السائق. هل أكلت أصداف بحر فاسدة أم ماذا؟

ـ إليّ بكـأس من الويسكي! أقول للنادل. في كأسٍ مزدوجة، أريدها لشخصٍ مريض!

*

* *

بعد ذلك بنصف ساعة أجدني عند مركز الحراسة على أبواب الأليـزيه. وصدّقوني إن شئتم، على قولة بيرو، ولكنّ الختيار كان هناك أيضاً. بلى، لقد تكبّد الأصلع العجوز مشقّة الانتقال نظراً لخـطورة المـوقف. واعجبـاه: انه يعلم إذاً أنّ الشوارع موجودة والأشجار، وأنّ في العالم أناساً آخرين غير رجال الشرطة المتأهبين أبداً!

يدنو مني ويُمسك بكتفي ويُعانقني، بحركة استعراضيّة أمام الجميع.

ـ هوّذا أيّها السادة، يقولُ، الرجل الذي جنّبنا الكارثة. وأستطيع الآن يا عزيـزي سان أنـطونيـو أن أؤكد لك أن ترقيتك الى رتبة

كوميســير ممتــاز باتت وشيكة. فعند ساعات صباح الغد الأولى سيكون التقرير على مكتب الوزير...

بادرة لطفٍ لا تنسى أن يُعانقني العجوز. فأروي له كيف عصيتُ أوامره رغبةً مني في كبحِ حماسه المفرط. وبالكاد ينتبه. لقد أوشكت الكارثة أن تقعَ وهو الذي لا يمتلك شعرةً واحدة فوق رأسه ما زال يَشعر بقشعريرةِ الخطر الداهم.

ـ انظر ماذا وجدنا في حوزته!

ويسحبُ من جيب سترتـه مسدّساً آلياً محشوّاً حتّى الفوهة برصاصاتٍ من شأنها أن تشفي صداعَ قطيع من الفيلة.

ـ وما تعليق هيثوردو؟

ـ لا شيء. ولن يتكلّم.

ـ والـمرأة؟

ـ إنهـا هنا. إنّها زوجة القنصل وتطالب بولدها. لقد اختطفه هؤلاء الإرهابيون لإبتزازها واخضاعها.

ـ إعملْ على طمأنتها، فأنا أعلم أين هو.

ـ وأنا أيضاً أعلم أين هو، يقول الحيزبون متفاخراً.

ومراعاةً لشأنه ومنصبه: أكتم قهقهةً هازئة تتشبّث بفكّي.

*

* *

ـ هلاّ دعوتني لتناول الطعام؟ يسأل بيرو. ويُضيف بشيءٍ من الحسد:

ـ لا بأسَ إذا دفعَ مَن بات مُرشحاً لرتبة كوميسير ممتاز ثمن وجبة عادية لأحد مرؤوسيه.

ـ أوكي، يا بنيّ، إني أدعوك الى المطعم الألاباني عند ساحة بيرير.

ـ لقد طفح بي الكيلُ الألاباني!

ـ طفح بك الكيل ولكنّك لم تتناول فيه طعام الغداء بعد، أقول له بلباقة مُفرطة ذلك أني أشعرُ بارتياح مُذهل.

فيضحك. ذلك أن بيروليس صعب المراس ويكفي أن تسترضيه بكلمة.

عند السلّم نصادف العجوز.

ـ الأمور على خير ما يرام، يقول، لقد استعادت السيّدة زوجة القنصل ولدها وستعودُ الى بلادها. جرح السيد موبوي في طريقه الى الشفاء و... الطقس مُشمس. الى أين أنتما ذاهبان؟

ـ إلى المطعم الألاباني عند ساحة بيرير. لك أن ترافقنا إن شئتَ، أيها الرئيس؟

ـ للأسف، وقتي لا يسمح لي بذلك.

كأنّه صباح عيد. خفّة في الأجواءِ وزحمة على أرصفة شارع كومارتان.

ـ ولماذا تصرّ على الذهاب الى هناك؟ يستعلم بيرو.

وإذا امتنع عن الإيضاح، يردف قائلاً:

ـ بسبب وفاة الصبيّة، أليس كذلك؟ ما زال الأمرُ يُشغل بالك، أليس كذلك؟

ـ بـلى.

وهناك نولم لأنفسنا. يطلب بيرو طبقاً من قُلَفِ السلطعون المقلية بالثوم كمقبّل، أمّا الطبق الأساسي فأراده رأسَ حمار أغبر باللوبياء الحمراء. بالإضافة الى حساء جبنة بالسكّر الناعم كتحلية.

ـ أعذرني لدقائق، أيّها الأكول، أقول له، سأذهبُ لغسلِ يديّ.

ـ وأنا أيضاً، سأذهب لأبوّل! يقولُ فجأةً.

نذهبُ الى المغـاسل، ويدخلُ بيرو الى كابينة الرجال نظراً لأنّ والدته قد زوّدته بكل اللوازم الضرورية لمثل هذه المناسبة. أنتظره في الخارج متعمّداً تبادل أطراف الحديث مع حافظة الملابس. عرفتني على الفور وبدت منزعجة. إنها كائن غامض وأسأل نفسي أحياناً كيف يمكن لمثل هذه الكائنات أن تحيا. أحدّجها بنظراتٍ ثابتة وكلّما ازداد ثبـات نظراتي ازداد ارتباكها. وكلّما ازداد ارتباكها ازداد ثبات نظراتي، حتّى أن أحدنا لا بدّ أن ينفجر في لحظة ما، مثل تلك الحرباء التي ربضت فوق تنّورة اسكتلندية.

وفي آخر الأمر أبادرها قائلاً:

ـ يبدو أنّك لست على ما يرام، يا صديقتي الرقيقة...

ـ ولكن لماذا أبدو..

ـ بلى، بلى. وان سألتِ عمّا أقول بهذا الشأن، فلا بدّ أنك تعانين تأنيب الضمير.

فجأةً تترقرقُ دموعٌ في عينيها.

واستعيدُ في ذاكـرتي حقيقة ما جرى ليلة أمس الأوّل (التي تصادفُ غداة اليوم الذي يسبقها بمصادفةٍ مذهلة).

فيما كنتُ أرتدي معطفي المشمّع كانت الفتاة ياباكسا تدْخُل الى كابينة النساء. وفي تلك اللحظة قالت لها حافظة الملابس شيئاً ما... حدث الأمر بسرعة خاطفة فلم أعِره انتباهاً.

ـ ماذا قلت للفتاة؟

تكلّمت بصوتٍ هامس كأني أسأل نفسي. متمتماً.

ـ ولكـن...

ـ لا تحاولي الخداع وإلّا ستنالين جزاءك...

ـ لقد عرفتك، تقول...

ـ ماذا تقصدين، عرفتني؟

ـ لقد كنتُ أعمل كنادلة في مقهى يَقَع قبالة مكاتبكم.

ـ وهذا يعنـي؟

ـ ظننتُ أنّك تتعقب اثر الفتاة. فقد كانت ترتاد المكان من حين لآخر ونتبادل أطراف الحديث. كنت أجدها لطيفة.

ـ تابعـي...

ـ قلت لها أن تتوخّى الحذر.

أزفرُ نفساً عميقاً لكي أتمالك لهاثي المتسارع.

ـ ماذا قلتِ لها بالضبط؟

ـ أعتذر ولكن...

ـ ردّدي أقوالك، بحقّ السماء!

فتقولُ متلعثمة:

ـ لقد قلت لها: «احذري هذا الرجل فهو ليس من تظنّين انّك تعرفينه بالفعل». أنا آسفة... ولكن صدقاً كنتُ أحسب انها اقترفت مخالفةً ما وأنّك...

ـ لقد تسبَّبتِ بموتها، اتمتم قائلاً.

ـ مــاذا!

ـ من أين لك أن تفهمي. لقد كانت مُصابة بمرض في القلب...

ـ ولكــن...

ـ وكانت تعلم جيّداً من اكون. وعندما أكّدت لها أنني لستُ من تظن أنها تعرفه بالفعل، حَسِبت أنني أحد أفراد العصابة.

وألزم الصمت. إذ لا حاجــة للاستغراق في شرح الأمور لهذه الشمــطاء المتعفنة. لقد أصيبت ياباكسا بصدمةٍ عنيفة بعد ظهر ذلك اليوم. وعندما قالت لها فردة الجورب القديم هذه إنني لستُ من تظن أنها تعرفه جيداً حَسِبت أنني... ولكنْ ها أنا أكرّر نفسي، فعُذراً: إنه الانفعال. ذلك أن ياباكسا، صاحبة القلب الجريح، ما كانت لتحطم الرقم القياسي في العَدْو الذي سجّله ماتو سالم. ولكنْ مع ذلك لم تكن حماقة الشمطاء لتساعدها!

صوت سيفــون مجلجل! ويُفتح باب الكابينة. ينبثق بيرو منها رائقاً، واثقاً من نفسه، راضياً مرضيّاً.

ـ ليس لأنّ الأمر ممتع، يقول، ولكنّه مريح!

ويروح البدين يسأل دون أن يتوقّف عن مضغ طعامه:

ـ للمناسبة هل استطعت أن تعلم كيف قتل هؤلاء الأوغاد القنصل؟

ـ لديّ بعض التفسيرات.

ـ إذاً أخطرني بنصفها كيما أُشبعَ نصف فضولي.

ـ إن بعض موظفي القنصلية كانوا ينتمون الى تنظيم مُتطرف مكلّف بإحداث القلقلة في أوروبا. وهدفهم: الحرب، الفوضى العامّة!

ـ يا للمخنثين! مع أن الحياة جميلة! يخور البدين غاصّاً بأذن رأس الحمار الأغبر باللوبياء.

ـ لقد خططوا للأمر بعناية بحيث تبدو الحادثة في نظر زوجة القنصل والموظفين الآخرين على أنها من تدبير أطراف خارجيّة. فالقاتل الذي حاول تصفية الفتاة دانلافي كان قد تسلّل قبل ذلك الى شقة موربيون الشاغرة نظراً لموقعها الجغرافي...

ـ إذاً؟

ـ ربط شريطاً عند مسند النافذة ليشير الى وادونك هيثوردو أنّه أصبحَ في موقعه...

ـ وماذا بعد؟

ـ كان القنصل يعقد اجتماعاً في مكتبه يضمّ: السيدة وزوجها القنصل ووادونك بالإضافة الى موظّفين آخرين...

ـ وبعد ذلك؟

ـ لقد أردى القاتلُ بالقنصل أمام هؤلاء الشهود جميعهم. وعلى الفور بادر هيثوردو الى قيادة العمليات. وأقنع الآخرين أنّه لا ينبغي الإبلاغ عن الحادثة قبل إخطار العاصمة الالابانية بالأمر.

فالحادث خطير جدّاً. فرضخ الجميع نظراً لخطورة الموقف. الأمر الذي أتـاح لهيثوردو أن يُسيطر على الآخرين وأن يحتلّ منصب القنصـل الفعـلي. وهكـذا استـطاع أن يُعيّن رجاله في المناصب القياديّة وعندما أصبح سيّد الموقف احتجز زوجة القنصل. فهو يحتاج معونتها في تنفيذ خطته خلال حفل الاستقبال. إذ كان عليها أن تترأس وفد القنصلية، أوتدرك قصدي؟

ـ ليس هناك ما يدعو الى العجب لأنها كانت الرئيسة بالفعل! يقول بيرو معترضاً.

يبدو لي أنّ البدين شارد الذهن. كنتُ أعتقد أن روايتي هذه تستثير فضوله... إلّا أن رأس التيس الذي يحمله له أحكامه. ففي بعض ساعـات النهـار تجتمع خصائص دماغه وقلبه وعضوه في مكان واحد: المعدة.

ـ ومـا اعترض سير مخططاته، أتابعُ برغم كلّ شيء. (مراعاةً للقارىء المنتبه وليس لبيرو)، هو اطلاق النار داخل القنصلية الذي أودى بحيـاة القـاتـل. وإذ فقـد اثنـين من عنـاصره اضطر الى الاستعانة باليد العاملة الأجنبيّة. ولذلك أعلن عن حاجته لسائق فتقدّمت لنيل الوظيفة، الأمر الذي أتاح لي، في النهاية ...

أغرز سكيني، مغيظاً، في خشب الطاولة.

ـ ولكن بحق السماء يا بيرو، إلامَ تنظر بدل أن تصغي!

ـ أرجو المعذرة، قال المنتفخ، ولكن ثمة صهباء خلفك تثير فيَّ الدوار. وأحسب أنني سأنالها. فهي تنظر إليّ باستمرار.

فالتفت الى الوراء وألقي نظرة فاحصـة. ثلاثة أعشار الثانية

كانت كافية لأدرك حقيقة الأمر، أنا اللبيبُ... الخ. هناك فتاة أعرفها تجلس الى الطاولة المجاورة، وهذه الفتاة ليست سوى الممرّضة التي اعتنت بابن القنصل. تعرفونها جيّداً، الفتاة التي تؤثر الفتيات على أشدّ الأشداء من الرجال. وأكاد أغصُّ بلقمة الغومولكا.

ـ غير معقول! أقولُ لنفسي بالفمّ الملآن بالفعل. إنها ظاهرة غريبة تلك التي يسمّونها المصادفة!

تبتسم لي برقة. ولا يبدو عليها أنها من طراز النساء اللواتي لا يُعرن الرجال اهتماماً إلّا إذا هرعوا لحمل حقائبها، أو لمعالجة صنبور حمّامها.

ـ في مثل هذه الحالة، تقول، أرى المصادفة في هيئة رجلٍ أصلع ينال وسام جوقة الشرف وقد زرعت طاولة مكتبه بغابة من أجهزة الهاتف.

ذبحت الاشارة اللمّاحة شرياني الأبهر وجمّدت أوصالي حتّى النخاع الشوكي.

ـ العجوز، أقول متلعثماً.

ـ هو الذي قال لي انكما تتناولان طعام الغداء في هذا المطعم.

وانضمّت الى طاولتنا.

ـ أنت تعرفينه إذاً؟

ـ إنّه أبـي!

فيفوق ذهولي ما قد يبديه مِنْ ذهولٍ النائمِ الذي يستيقظ فجأةً ويرى أن الطبقة الثالثة من برج إيفل تشاطره السرير.

ـ أبـوكِ!

ـ ألا ترى أنه رجل! يتمتم البدين.

تضحـك كلير. ولكن تدعى كلير بالفعل؟ أجل: تؤكّد ذلك. لقد أقنعها الحيزبون بأن تلعب دور المرضة. انه شديد البأس، أليس كذلك؟ ولا يخشى المخاطر. ولذلك ربّما كان يُبدي مثل ذلك الحرص على تجنّب أي هفوة.

ـ لقد جئتُ لأبدّد ما أشعته بيننا من سوء فهم، تهمس كلير.

ـ أي سوء فهم؟

ـ بشأن... أوه... بشأن تصّرفاتي. لقد حذّرني أبي وقال لي إنّك كازانـوفا وطلب مني أن أتحوّط للأمر صوناً لعفّتي. فقناعته أنّها معـرّضـة للمخـاطر أكثر من حياتي. وأقسمت له أنني سأحفظ المسافة بيننا. وتذرّعت بتلك الكذبة، أرجو أن لا تحقد علّي.

أهزّ رأسي ببلاهة.

ـ لا، على الاطلاق.

يمسـحُ البـدين شفتيـه الزفـرتـين بمقلب ربـطة العنق التي استخدمت مراراً لهذا الغرض، ويقول مغتبطاً:

ـ إنّك أكثر حنكةً من أبيك.

تستغـرقُ عيناي في عيني الفتاة. فيسري في جسمي إحساس بالدفء آمل أن تشعر بمثيل له.

ـ ماذا تفعلين بعد ظهر اليوم؟ أنعقُ قائلاً.

ـ ما تفعله أنت. تنقّ قائلةً.

*

* *

لا تصدّقوا إن شئتم، لكنّها وَفَت بالوعد!

استنجد موربيون الاستاذ المتقاعد بتلميذه القديم سان انطونيو بعد ان قرا عنه في الصحف انه اصبح محققاً جنائياً ناجحاً.

فقد عاد الاستاذ موربيون الى منزله بعد قضاء مدة شهرين في المستشفى وفوجيء فور دخوله برائحة غريبة في الدار هي اقرب الى رائحة البارود ورغم ان المنزل كان على حاله كما تركه ولم يسرق منه شيئاً مما اثار شكوكه، بالاضافة الى الرائحة الغريبة، ان رقاص ساعة الحائط لا يزال يعمل مع انه تركه منذ شهرين ولا يفترض ان يستمر اكثر من ثمانية ايام، فما الذي جرى في منزل الاستاذ؟ وماهي الاحداث التي تعاقبت؟

1855131749